روبرت لويس ستيفنسون

نادي الانتحار

متوالية قصصية

فريق متميزون
E-BOOK

ترجمة:
رنيم العامري
نداء غانم

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة: هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات: فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

نادي الانتحار

متوالية قصصية..

الكاتب: روبرت لويس ستيفنسون
ترجمة: رنيم العامري – نداء غانم

عن الرواية

في محاكاة لا تُخفى لكتاب (ألف ليلة وليلة)، يعمدُ الروائي الاسكوتلاندي (روبرت لويس ستيڤنسون) إلى خلق عوالم حكائيّة أشبه بعوالم (شهرزاد) وهي تروي حكاياتها المترادفة. فيكتب في نهاية حكايته الأولى أن مؤلّفه العربيّ هو الذي روى الحكاية، ثم يعقب بعبارة تشير إلى أنه سيروي بعدها، وعلى غرار ديك الصباح وسكوت شهرزاد عن كلامها المُباح؛ حكاية أخرى ستُشير بصريح العبارة إلى ما قبلها من أحداث، ومع نفس الشخوص، وكذا الأمرُ مع الثالثة. يتضمّنُ هذا الكتاب ثلاثاً من أقاصيص ستيڤنسون المتسلسلة. التي ضمّها مع عددٍ من الحكايات المُشابهة في مؤلفه ذي المجلّدين (الليالي العربية الجديدة). وعلى الرغم من أن أحداثها كانت تدور في أوروبا الحديثة (النصف الثاني من القرن التاسع عشر)، إلا أنه كان يرسم فيها، وبأسلوب خاصّ به، صلةً بالبُنية المتداخلة للحكايات العربية إيّاها.

في مقال لخورخي لويس بورخيس عن الأدب الإنجليزي، تناول فيه أدب ستيڤنسون، يقول: «يتناول عمل روبرت لويس ستيڤنسون - الليالي العربية الجديدة - المُثير للإعجاب موضوع الأمير المتنكّر الذي يجوب المدينة برفقة وزيره وهما يخوضان معاً المغامرات الغريبة. لكن ستيڤنسون اختلق أميره، فلوريزيل من بوهيميا، ورفيقه العقيد جيرالدين، وجعلهما يمشيان في أرجاء لندن. ليست لندن الحقيقية، بل لندن الشبيهة ببغداد، وليست بغداد الحقيقية بل بغداد ألف ليلة وليلة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مقدمة المترجمة

«ألوذُ بالقصص عندما أكون مهموم البال، وأتعاطاها كما لو أنها أفيون. وأُشير إلى كاتبها كطبيب للعقل. وبصراحة، ليس شكسبير من نلجأ له عندما نكون منزعجين، وبالتأكيد، ليس جورج إليوت ولا حتى بلزاك. بل تشارلز ريد أو قصص دوماس القديمة أو الليالي العربية، أو أفضل أعمال والتر سكوت. نحن نريد القصص، لا الوظيفة الشعرية العالية التي تمثّل العالم... نحن نريد الحادثة، التشويق، الحدث، ولتذهب فلسفتك إلى الشيطان. وعندما نتعافى ثانية، وتكون أذهاننا مرتاحة، سنعود إلى عملك المهمّ، ولكن كل ما نريده الآن هو المخدِّر» ([1]).

روبرت لويس ستڤينسون

إن ألف ليلة وليلة، أو ما تُعرف في العالم الغربي بالليالي العربية، حاضرة بشكل دوري في الأدب الغربي منذ أن ظهرت سنة ١٧٠٤ بترجمة المستشرق أنطوان غالان إلى اللغة الفرنسية. وقد ظلّت إنجلترا تعتمد لفترة طويلة على الترجمة الفرنسية حتى نشط بعض مستشرقيها للترجمة عن الأصل العربي ([2]). يقول ستيفنسون عن ألف ليلة وليلة: «ثمة كتاب واحد... يأسرنا في الطفولة، ولا يزال يُبهجنا في الشيخوخة... إنه الليالي العربية... حيث ستبحثُ سدى عن الفائدة الأخلاقية والفكرية. حيث ما من وجه أو صوت بشري ليرحّب بنا وسط هذا الحشد من الملوك والجن والسحرة والمتسولين. إنها مغامرة، في أكثر العبارات تعرية، تقدّم الترفيه وهذا يكفي» ([3]). بالنسبة لستيفنسون فأن الليالي العربية محبوبة أكثر من أعمال شكسبير بصورة عامة. فهو يعبّر عن كيف أنها تأسرنا في الطفولة وتبهجنا في الشيخوخة. ذلك لأن «اللهو أو التسلية التي توفّرها قصة تُحكى ببراعة يمكن أن يؤدي إلى تخفيف حكم أو حتى وقف إعدام، وغالباً ما يخدم السرد نفسه كمرهم لتطبيب نافذي الصبر أو الأشرار مثلما يكون دواءً شافياً ومواسياً للجرحى» ([4]). وما يجعل ألف ليلة وليلة مناسبة لأدوات ستيفنسون في كتابة الليالي العربية الجديدة، هو «لأنها بئر لا ينضب من الإبداع ومصدر للخطاب الروائي» ([5]).

في أطروحته للدكتوراه، يناقش الباحث مدى صالح، كيف أن ستيفنسون تناول القضايا الحديثة في عصره باستخدام تقنيات الشكل الرئيسية الموجودة في ألف ليلة وليلة. ومن الواضح أنه استخدم أسلوب السرد متعدد الطبقات و«المؤلِّف العربي» المثير للاهتمام، وهو الراوية الداخلي، الذي يقف حلقة وصل بين القصص، ويمثّل دور شهرزاد في تقديم واختتام

كل قصة. إن الشخصيات الأساسية في الليالي العربية الجديدة هي الأمير فلوريزيل، الذي من الواضح أنه هارون الرشيد الحديث، وجيرالدين هو وزير هارون الرشيد، جعفر البرمكي ([6]).

ويرى صالح، أن ستيفنسون يقوم بما هو أكثر من مجرد تقليد أسلوب أو أفكار الليالي العربية. لأنه جعلها جديدة، بكلمات ت. س. إليوت، «إن مهمة الشعر الدائمة هي جعل كل الأشياء جديدة، وليس بالضرورة صُنع أشياء جديدة»، لأنه بالرغم من وجود تشابه في الشكل، إلا أن الأعمال مختلفة في جوهرها. وهنا نرى ستيفنسون لا يقلد ألف ليلة وليلة تقليداً أعمى، لكنه يتبنى تقنياتها، وخاصة أسلوب السرد.

ويشير صالح إلى أن ستيفنسون استفاد من صعود القصة القصيرة، حيث بدأ قارئ القرن التاسع عشر يميل نحو الرواية القصيرة. إذ ازدادت سرعة الحياة بشكل حاد في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وانعكست خصائص العصر في القصة القصيرة كشكل مكثف وعابر، يمكن قراءته في وقت قصير نسبياً. فنرى أن ستيفنسون قد أتقن الضغط والتكثيف في رواياته القصيرة لتلبية متطلبات القارئ الحديث، «حيث التصعيد وتكثيف التأثير، هو علامة القصة القصيرة الجيدة. وهي علامة أفضل قصص ستيفنسون» ([7]). ويرى صالح أن ستيفنسون قد تمكّن من توظيف الليالي العربية في إحياء السرد الملحمي التقليدي من خلال إدخال بعض العلامات الحداثوية للقصة القصيرة. بعبارة أخرى، برأي صالح، تكمن تقليدية ستيفنسون في استخدامه لأساليب الكتابة التقليدية، ومن ناحية أخرى يمكن العثور على شرارات الحداثة المبكرة في أعماله في استخدامه للمدينة، والمؤلّف العربي، وهو الراوية الداخلي في الليالي العربية الجديدة الذي يعطينا تلميحاً عن الأسلوب العصري الحرّ غير المباشر في العمل، كما ويعتمد ستيفنسون أيضاً على الرمزية، ويحاول التعبير عن الشكوكية والبحث عن الحقيقة التي سادت مطلع القرن التاسع عشر.

ومثل ألف ليلة وليلة، فأن الليالي العربية الجديدة لستيفنسون، تستند إلى مغامرات عدد من الأشخاص، معظمهم ثلاثة، يجتمعون عن طريق الصدفة. يلتقي الأمير فلوريزيل والعقيد جيرالدين بالشاب صاحب الفطائر القشدية. ثمّة ميزة أخرى حاضرة بقوة، هي الوصف التفصيلي للمنازل والطرق والأبواب والغرف والقصور، المؤدية إلى الوجهة الهدف. وهنالك صورة محددة مكرّرة في ألف ليلة وليلة، نجدها واضحة في هذه العبارة من ليالي ستيفنسون: «في صمت مطبق، اجتاز الرجال الثلاثة الباب، الذي أُغلِق خلفهم في الحال، وتبِعوا دليلهم عبر عدة مجازات ضيّقة في الحديقة إلى مدخل المطبخ في المنزل»، كما لو أن المجهول يبتلعهم، ومن هنا تبلغ

المغامرة ذروتها. وأفضل مثال لهذا التصوير برأي صالح هو قصة عزيز وعزيزة من ألف ليلة وليلة، عندما يلبّي عزيز مطالب امرأة مجهولة ويدخل داراً لم يكن يعرفها من قبل، ثم يُغلق الباب «المصفّح بالنحاس الأحمر» وراءه ويُحتجز في الدار لعامٍ كامل.

بينما يستخدم ستيفنسون وصف الشوارع الفارغة المظلمة، حيث البيوت معزولة. وهنالك العديد من الممرات والأزقة التي تشبه المتاهات. وثمة ڤلل وقصور ضخمة، مهجورة أو كئيبة، وفيها غرف عديدة، مظلمة أو تنيرها شمعة وحيدة، والأبواب موصدة، وهي تُخفي خلفها الأسرار الخطيرة. وهي مشاهد مشابهة لمشاهد ألف ليلة وليلة، حيث هنالك قصور ضخمة وأقبية ودهاليز سرية، وأبواب يجب أن لا تُفتح. يستخدم ستيفنسون أيضاً المدن الكبرى كموقع للقصة، لندن وباريس. فيما تدور أحداث ألف ليلة وليلة في حواضر المدن في ذلك الزمن أيضاً، مثل دمشق والبصرة وبغداد.

في ألف ليلة وليلة هنالك دائماً مهام صعبة، ذات قواعد ومحظورات معيّنة، على الأبطال إكمالها لكي يحصلوا على ما يريدون. وهذا مشهد مشابه في الليالي العربية الجديدة لستيفنسون، حيث يتوجّب على البطل أن يحقق هدفاً معيناً، له تأثير هائل على حياته.

يتّفق الكثيرون على أن هذهِ المجاميع القصصية القوطية الرومانسية، تصل إلى أسئلة ذات أهمية اجتماعية، من بينها دور التكنولوجيا في الحياة والموت. حيث الاختراعات أما تكون في صالح البشرية أو بالعكس. في عالم ستيفنسون، يجري الحديث عن السفر بالقطار أو التواصل بالتليغراف، واستخدام المصاعد، وفي نفس الوقت المُساعدة على الانتحار.

في القصة، يقول الشاب صاحب الفطائر القشدية: «نحن نعيش في عصر الراحة، لذا عليّ أن أخبركما عن أحدث وسائل الراحة. اخترع البشر القطارات. وبعد أن نجحت القطارات في إبعادنا عن أصدقائنا، كان يجب اختراع التلغراف، لكي نتمكّن من التواصل.. وحتى في الفنادق صارت لدينا مصاعد لتجنيبنا صعود مئات الدرجات على السلالم... إن هذه الحياة مسرح..»، ومن الجدير بالذكر، أن في عمل ستيفنسون إشارتين لشكسبير، الأولى بتسمية فلوريزيل على شخصية ظهرت في مسرحية (حكاية الشتاء)، والثانية في عبارة «الحياة مسرح»، التي ظهرت في مسرحية شكسبير (كما تشاء)، ولكن كانت «العالم مسرح».

لم يعلّق أحد على دور التكنولوجيا في جعل الموت وسيلة راحة حديثة. عندما يصبح الانتحار مسألة راحة في هذه البيئة التكنولوجية والاجتماعية الفيكتورية. ويرى إيثان تايلور ([8]): «إن عالمَ ستيفنسون يعدّل مكانه من

أجل الحداثة»، حيث «الابتكارات التكنولوجية بما في ذلك الهاتف والتليغراف والأشعة السينية والسينما والدراجات والسيارات، إلخ، قد أرست الأساس المادي لتبدّل التوجهات.. وكانت النتيجة، تحولاً في أبعاد الحياة والفكر» ([9])، ورغم أنه لم تظهر هذه الاختراعات كلّها في حياة ستيفنسون، ولكنّه كان حاضراً عند بداية تفجّر موجة الاختراعات التكنولوجية. إذن، وبحسب إيثان تايلور، أنه ليس من المفاجئ أن تظهر نوادي انتحار حقيقية في لندن الفيكتورية في هذا الوقت. كما ويرى تايلور، أن الليالي العربية الجديدة تتطرق إلى العديد من مخاوف نهاية القرن المرتبطة بالتدهور الملحوظ للهيمنة الثقافية البريطانية، والنقاء العرقي، والهيمنة الذكورية ([10])، والاستقرار الإمبراطوري. ومن بين هذه المخاوف كانت هناك فكرة الموت في هذا المشهد الفيكتوري المتأخر/باكورة الحداثوية.

في عام ١٨٠٩، نشر ويليام هارت، قصيدة طويلة بعنوان «ضد الانتحار»، بدأها بسطرٍ افتتاحي يبرّر فيهِ سبب كتابته لهذهِ القصيدة قائلاً إنه كان شاهداً على الانتحارٍ «المؤثّر إلى حدٍّ بعيد بسبب نزعته اللاأخلاقية وبسبب الظروف المروّعة المحيطة بهِ، وبعد أن نظرتُ بقلقٍ عميق إلى هذا الفعل المؤسف المتكرّر يومياً وبعددٍ لا نهائي، وانتشاره المتزايد في هذا البلد على وجه الخصوص. فقد عقدت العزم على الكتابة في هذا الموضوع، ليس عن حماقته فحسب بل وإجرامه الفعلي» ([11]). بالنسبة لهارت فأن الانتحار مؤثّر لحدٍ بعيد بسبب نزعته اللاأخلاقية التي هي في نفس الوقت تكاد تكون مُعدية في قدرتها على إفساد أخلاق العامة. كما ويؤكد جازماً أن حالات الانتحار تزايدت لأعداد غير مسبوقة لا عدّ لها ولا حصر وبشكل يومي في هذا البلد على وجه الخصوص.

يرى إيثان تايلور، أن ستيفنسون استجاب لارتفاع ظاهرة الانتحار من خلال شخصيات قصته، ويرى باحثون ([12]) أن لندن التي يصوّرها ستيفنسون في نادي الانتحار، هي «مرآة إنجلترا في أواخر العصر الفيكتوري؛ عالم مظلم، مصاب بانفصام الشخصية في بعض النواحي»، مما يسمح –برأي إيثان تايلور- بتخمين أن ستيفنسون كان من بين أولئك الذين أدركوا الزيادة الملحوظة في حالات الانتحار. بحيث كان الانتحار في أذهان الكثيرين فظهر في قانون الدفن الصادر عن البرلمان لعام ١٨٨٢ ([13])، الذي منح حقوق الدفن التي لم تكن تُمنح سابقاً للمنتحرين.

كتب آندرو لانغ ([14])، صديق ونظير أدبي لستيفنسون، في مقالة عن ليالي ستيفنسون الجديدة «إنها تقدّم نوعاً جديداً من الرومانسية الشرقية

الغرائبية.. يلعب ستيفنسون فيها دور راوية عربي في ضباب وأهوال لندن... ضامناً أن الرومانسية تسير جنباً إلى جنب مع الواقع».

وبرأي إيثان تايلور، أن ستيفنسون يقدّم عالماً منحلّاً من القتل والخيانة والانتحار من ناحية، وإدمان التسمم الحّسي المنحل من خلال المخدرات والكحول والطعام الفخم من ناحية أخرى. حيث تُوازن «تجارب الخسارة والضعف في عالم سريع التغير من خلال الإثارة الملموسة» ([15]). ويتمّ الكشف عن السبب الحقيقي لهذا الشرّ المنحطّ في أحاديث عرضية، كالإيمان بنظرية داروين مثلاً. فبعد ضربة كوبرنيكوس وغاليليو، جاءت ضربة داروين. ما أن أصبحت الخطوط الفاصلة الصارمة بين الإنسان والحيوان غير واضحة بشكل عميق، وجد الرجال الفيكتوريون أنفسهم مسكونين بكابوس من الفوضى والغموض والتناقض. كانت إنسانيتهم على المحكّ، وهو تهديد أثار القلق وجنون العظمة والغضب. وهذا وفقاً لستيفنسون هو الشرّ الفعلي.

ولكن هناك من يقترح، أن في الطبيعة الساخرة للنادي، إعادة صياغة لنظريات آدم سميث الاقتصادية ([16]). إن ستيفنسون، من خلال تسميته لإحدى شخصياته، شخصية العضو الفخري للنادي، باسم مالتوس، يوضّح فهماً للآثار المترتبة على نظريات مالتوس الاقتصادية للنمو السكاني ونضوب الموارد. توماس روبرت مالتوس، في كتابه (مقال عن مبدأ السكان) يقول لكي يبقى المجتمع، على الطبيعة أن تعيد التوازن، من خلال عوامل ضابطة، هي الأوبئة والمجاعات والحروب. وأحد العوامل الضابطة التي يقترحها هذا «العضو الفخري» هو أن يقوم أحد أعضاء النادي بقتل عضو آخر.

ظهرت (الليالي العربية الجديدة) لأول مرة كأجزاء في مجلات دورية مثل لندن ماجازين، كورنهيل ماجازين، بين الأعوام ١٨٧٧ و١٨٨٠. ظهرت القصص لأول مرة تحت عنوان Latter-Day Arabian Nights، ويحتوي على قصتين، The Suicide Club, The Rajah's Diamond في لندن ماجازين. ولكنها طُبعت في كتاب في ١٨٨٢ تحت عنوان New Arabian Nights.

لقد أُثني على عمل ستيفنسون، بالقول: «إن (الليالي العربية الجديدة) ربما تكون الأكثر تميّزاً وفرادة، لا يوجد أي شيء مثلها من قبل، وأعتقد أنه لا يوجد أي شيء يضاهيها منذ ذلك الحين... رائعة ومبتكرة وشكل جديد من الفن» ([17]). ويرى صالح أن ما يساهم في جعل ليالي ستيفنسون العربية جديدة، هو استخدامه للتقليدية والحداثوية في نفس الوقت، إنه ليس شكلاً قديماً ولا حديثاً، فهو يُحيي القديم ويمهد الطريق للجديد.

يرى بعض النقّاد أن ستيفنسون هو مبشّر بالحداثوية، وأنه «رائد الحداثويين» ([18]). ويعلّق باحثٌ ([19]): «إن الليالي العربية الجديدة لستيفنسون، كتاب في الظاهر. ولكن، في الحقيقة لا يمكن الحديث عن الكتاب من ظاهره، لأن تحته يوجد عمق مذهل من التفاصيل الدقيقة والبراعة والشيطنة الساخرة وأشكال الدعابة الغريبة والمراوغة التي يفقد فيها العقل التحليلي نفسه».

رنيم العامري

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حكاية الشاب صاحب الفطائر القشدّية

خلال إقامته في لندن، حاز فلوريزيل أمير بوهيميا النجيب، محبّة كل طبقات المجتمع، وذلك بفضل أسلوبه الساحر وسخائه المدروس بعناية. كان رجلاً رائعاً حتى بالقياس إلى ما عُرفَ عنه، وليس هذا إلا جزءاً يسيراً مما قام بهِ بالفعل. وبالرغم من طبعه الهادئ في الظروف الاعتيادية، وعادته في التعامل مع العالم بفلسفة فلّاح بسيط، إلا أن أمير بوهيميا كان مولعاً بأساليب الحياة الأكثر مغامرة وغرابة من التي قُدِّر له أن يولد فيها. بين الحين والآخر، عندما يسوء مزاجه، ولا تكون هناك مسرحية هزلية ليشاهدها في أيٍّ من مسارح لندن، وعندما يكون الموسم غير مناسب لتلك الرياضات الميدانية التي يتفوّق فيها على جميع منافسيه، كان يستدعي صديقه المقرّب قائد الخيّالة ([20]) العقيد جيرالدين، ويأمره أن يتأهّب لمرافقته في جولة مسائية. كان قائد الخيّالة ضابطاً شاباً يتّصف بالشجاعة حدّ التهوّر. فكان يستقبل الخبر بسرور، ويسارع إلى التأهب. وقد منحته خبرته الطويلة ومعرفته المتنوعة بالحياة، موهبة فريدة في التنكّر. كانت لديه قدرة على تكييف ليس وجهه ووقفته فحسب، بل حتى صوته وتقريباً أفكاره، لتتلاءم مع أية شخصية يختار أن يلعب دورها، مهما كان مركزها وصفاتها وجنسيتها. وبهذه الطريقة كان يصرف الانتباه عن الأمير، فيتمكّن هذا الثنائي من الدخول إلى المجتمعات الغريبة. لم تكن السلطات المدنية على اطّلاع بهذه المغامرات السرية. فبفضل الشجاعة الراسخة للأمير، والبراعة الحاضرة والتفاني الشهم للعقيد، تمكّن الثنائي من تجاوز عشرات المواقف الخطرة، وبمرور الوقت ازدادت ثقتهما ببعضهما البعض.

في إحدى ليالي شهر مارس، ساقهما منحدر صقيعي حادّ إلى حانة تقدّم المحّار مجاورة ساحة ليستر. ارتدى العقيد جيرالدين ملابس تجعله يبدو بهيئة صحفي مُفلس، بينما قام الأمير كالعادة بالتنكّر عن طريق إضافة سالفين مزيّفين وزوج من الحواجب اللاصقة الكبيرة. وقد أعطاه هذا التنكّر هيئة الأشعث والأسفع الوجه، وهي أكثر هيئة لا يمكن كشفها لمن هو كريم المحتدّ مثله.

بهذا التنكّر جلس القائد ورفيقه في حانة المحّار، يرتشفان مشروب البراندي بالصودا في سلام.

كانت الحانة مكتظة بالزبائن من الجنسين، وبالرغم من أن أكثر من واحدٍ من هؤلاء قد عرض الدخول في حديث مع مغامرَينا، ولكن لم يبدُ على أيّ منهم أيّ اهتمام بتكوين معرفة أقرب بهما. لم تكن هذه الحانة تجمع إلا حثالات لندن وسقط متاعها المبتذل. راح الأمير في نوبة تثائب وبدأ السأم يتسلل إلى روحه من هذه الأمسية المملّة بأكملها، ولكن فجأة، فُتح البابان المتأرجحان بعنف، ودخل الحانة شاب يتبعه خادمين ببزّتين. حمل كلٌّ منهما صينية كبيرة مغطّاة، ثم نزع كل منهما الغطاء على الفور، كانت كل صينية مليئة بالفطائر القشديّة. وعندها راح الشاب يطوف بين الحضور وهو يقدّم الفطائر لكل واحدٍ منهم بكياسة مبالغ بها. كان عرضه يُقبَل أحياناً بالضحك، ويُرفض أحياناً أخرى بحزم أو حتى بقسوة. وفي حالة الرفض، كان الوافد الجديد يأكل الفطائر بنفسه دائماً، وهو يُلقي تعليقاً مضحكاً إلى حدٍ ما.

أخيراً دنا من الأمير فلوريزيل.

قال بانحناءة محفوفة بتوقير عميق وهو يقدّم الفطيرة بين إبهامه والسبّابة: «سيدي، هلّا كرّمتَ شخصاً غريباً بقبول هديته؟ يمكنني أن أضمن لكَ جودة هذه المعجنات، فقد أكلتُ منذ الساعة الخامسة ولحدّ الآن، سبعاً وعشرين قطعة منها».

أجاب الأمير: «لقد اعتدتُ على أن لا أنظر لطبيعة الهدية، بقدر ما أنظر إلى الروحية التي تُقدَّم لي بها».

أجاب الشاب بانحناءة أخرى: «إنها روحية استهزاء يا سيدي».

كرّر فلوريزيل: «استهزاء! ومن هذا الذي تستهزئ به؟».

أجاب الشاب: «لستُ هنا لشرح فلسفتي، بل لتوزيع الفطائر فحسب. ولكن، إذا أخبرتُك بأني أضمُّ نفسي إلى هؤلاء الذين أسخر منهم، فآمل أن تعتبر أن شرفك مصان وتتلطّف بقبول هديتي. وإلا، فإنك ستجبرني على التهام القطعة الثامنة والعشرين، ويجب أن أعترف أنني بدأتُ أضجر من هذهِ الممارسة المتكرّرة».

قال الأمير: «لقد أخذَتني الشفقة بك، وأنا على أهبة الاستعداد لإنقاذك من هذه الورطة، ولكن بشرط واحد. لو أكلت أنا وصديقي فطائرك -ويجب أن أقول إنه ليس لدى أيّ منا رغبة في ذلك- فنحن في المقابل نتوقع منك الانضمام إلينا على العشاء على سبيل ردّ الإحسان».

فكّر الشاب ملياً.

قال أخيراَ: «لا تزال بين يديّ بضعة عشرات منها. وهذا سيجعل من الضروري بالنسبة لي زيارة العديد من الحانات الأخرى قبل أن أتمّ مهمتي العظيمة. سيستغرق ذلك بعض الوقت، وإذا كنتَ جائعاً..».

فقاطعه الأمير بإيماءة مهذبة قائلاً: «سنرافقك أنا وصديقي. لأن طريقتك اللطيفة جداً لإمضاء الأمسية أثارت اهتمامنا للغاية. والآن بعد أن اتفقنا على مقدّمات السلام، اسمح لي بالتوقيع على المعاهدة نيابة عنّا كلينا».

ثم ابتلع الأمير الفطيرة بأكثر الطرق تهذيباً وحفاوة.

قال: «إنها لذيذة».

أجاب الشاب: «أرى أنّ لك ذائقة مميّزة».

وبالمثل، فقد احتفى العقيد جيرالدين بالفطائر. وبعد أن قبل أو رفض كل شخص في الحانة المعجنات الشهية، شقّ الشاب ذو الفطائر الطريق إلى حانة أخرى. وتبعه على الفور الخادمان، اللذان بدا أنهما اعتادا على مهمتهما التافهة. وتبعهم في الخلف الأمير والعقيد متشابكي الأيدي، ويتبادلان الابتسامات فيما هما يغدوان. بهذا الترتيب، زار الرفاق حانتين إضافيتين، حيث تكرر المشهد ذاته، أشخاص يرفضون وآخرون يقبلون عطايا هذه الضيافة الصعلوكيّة، فيما الشاب نفسه يأكل كل فطيرة مرفوضة.

بعد مغادرته الحانة الثالثة، أحصى الشاب ما بقي بحوزته من الفطائر. فوجد أنه لم يبق معه منها سوى تسع؛ ثلاث في صينية، وستّ في الأخرى.

قال مخاطباً تابعَيه الجديدين: «أيها السيدان النبيلان، أنا لا أرغب بتأخير عشائكما أكثر من ذلك. أنا متأكّد من أنكما جائعَين. كما وأشعر أنني مدين بأن أوليكما اهتماماً خاصاً. لأنه في هذا اليوم العظيم بالنسبة لي، الذي أنهي فيه مسيرة حياتية مليئة بالحماقة، بقيامي بواحدٍ من أكثر الأفعال سخفاً، أودّ أن أكافئ بسخاء كل من دعمني. سيّداي، لن أجعلكما تنتظران أطول من ذلك. على الرغم من أن بُنيتي الجسدية وصحّتي قد تدمّرتا بسبب إسرافي السابق في الأكل، إلا أنني حتى مع الخطر الذي يهدّد حياتي، سأفي بالعهد الذي قطعتُه على نفسي».

وما أن أتمّ هذه الكلمات، حتّى قام الشاب بالتهام الفطائر التسع المتبقية، واحدة تلو الأخرى، بحركة واحدة، ثم التفت إلى الخادمين، ومنح كل واحدٍ منهما قطعة سوفرن ذهبية ([21]).

وقال لهما: «أودّ أن أشكركما على صبركما الاستثنائي».

‴

ثم قام بصرفهما مع انحناءة لكل منهما. ووقف لبضع ثوان وهو يتطلّع في كيس النقود الذي دفع منه لتوه أجرة مساعدَيه، ثم فجأة، ألقى ضاحكاً بالكيس في قارعة الطريق، وأبلغ رفيقيه باستعداده لتناول العشاء.

في مطعم فرنسي صغير في سوهو ([22])، كان يتمتع بسمعة مبالغ فيها لبعض الوقت، غير أنّه بدأ يصبح في طيّ النسيان، وفي غرفة خاصة في الطابق الثالث، تناول الرفاق الثلاثة عشاء فاخراً للغاية، وشربوا ثلاث أو أربع زجاجات من الشمبانيا، وتجاذبوا أطراف الحديث عن مواضيع عامة. كان الشاب طلق اللسان ومرحاً، لكنه يضحك بصوت أعلى من المعتاد بالنسبة لشخص تربّى على التهذيب، كانت يداه ترتعشان بشكل ملحوظ، وكان صوته يتخذ انتقالات مفاجئة ومتفاوتة، بدت وكأنها لا تخضع لإرادته. عندما أُخليت الطاولة من أطباق الحلوى، وأشعل الثلاثة لفافاتهم، خاطبه الأمير بهذه الكلمات:

«أرجو أن تغفر لي فضولي. إن ما رأيته منك قد أسعدني كثيراً، ولكن حيّرني أكثر. وبالرغم من أنني أكره أن أبدو فضولياً، ولكن يجب أن أخبرك أنني أنا وصديقي أهلٌ لأن يُعهد إلينا بالأسرار. ولدينا الكثير منها، التي نكشفها باستمرار إلى آذان غير مناسبة. فإذا كانت قصتك سخيفة كما أفترضُ، فلا داعي لأن تكون في حرجٍ منّا، لأننا نحن الاثنان من أسخف الرجال في إنجلترا. اسمي غودال، ثيوفيلوس غودال، وصديقي الرائد ألفريد هامرسميث. أو على الأقل، هذا هو الاسم الذي اختار أن يُعرف به. وقد كرّسنا حياتينا بالكامل في الخوض في المغامرات الطائشة، وليس هنالك من طيشٍ لا يمكننا التعاطف من كل قلبينا معه».

أجاب الشاب: «أنا معجب بك سيد غودال، أنت توحي لي بالثقة، وليس لدي أدنى اعتراض على صديقك الرائد، الذي يبدو لي أنه رجل نبيل متنكر. أو على الأقل، أنا متأكد من أنه ليس بمحارب».

ابتسم العقيد لهذا الثناء غير المقصود على إتقانه لفنّ التنكّر.

أكمل الشاب حديثه بحماس أكبر قائلاً:

«لدي الكثير من الأسباب التي تمنعني من إخباركما بقصتي. وربما كان هذا هو السبب في أنني سأفعل ذلك. على الأقل، تبدوان في مزاجٍ لسماع قصة عن الحماقة، وقلبي لا يقوى على تخييب ظنكما. لن أحذو حذوكما وأفصح عن اسمي، وسأحتفظ به لنفسي. أما عمري فلا علاقة له بقصتي. لقد ورثتُ من أجدادي مسكناً ملائماً لا زلتُ أقطن فيه، وثروة من ثلاثمئة جنيه في السنة. وأعتقد أنهم أورثوني أيضاً الحسّ العبثي، الذي كانت بهجتي الكبرى

هي في مجاراته. لقد تلقّيت تعليماً جيداً. كما وأجيد العزف على الكمان بما يكفي لأكسب المال في إحدى فرق البيني غاف ([23]). الملاحظة نفسها تنطبق على الفلوت والبوق الفرنسي. لقد تعلمت ما يكفي من لعبة الورق (ويست) ([24]) فخسرت حوالي المئة جنيه في عام واحد في تلك اللعبة. وتبيّن أن معرفتي باللغة الفرنسية قد سهّلت لي تبديد أموالي في باريس بنفس سهولتها في لندن. باختصار، أنا شخص مليء بالإنجازات الرجولية. لقد خضت كل أنواع المغامرات، بما في ذلك مبارزة حول لا شيء في الحقيقة. ولكن قبل شهرين، قابلت سيّدة شابّة تتناسب تماماً مع ذوقي فكرياً وجسدياً، فذاب قلبي. إذ رأيت أني قد وقعتُ على قدري أخيراً، وكنت على وشك الوقوع في الحب. لكنني عندما أحصيتُ ما تبقى لي من رأس مالي، وجدتُ أنّه أقل من أربعمئة جنيه! والآن، أسألكما بصراحة، هل يمكن لرجل يحترم نفسه أن يقع في الحبّ وليس معه إلا حوالي الأربعمئة جنيه؟ وحين توصلت إلى أنه كلّا بالتأكيد، تركتُ امرأتي الفاتنة، وسارعت في معدل إنفاقي المعتاد، إلى أن وصلتُ هذا الصباح إلى آخر ثمانين جنيهاً معي. وهذه قسمتها إلى جزأين متساويين، أربعون جنيهاً منها احتفظت بها لغرض معين، والأربعون المتبقية قررت أن أبدّدها قبل انقضاء الليل. لقد قضيتُ يوماً ممتعاً للغاية، وأدّيتُ العديد من الأدوار التمثيلية، إلى جانب تمثيلية الفطائر التي أتاحت لي فرصة معرفتكما، لأنني كنت مصمّماً، كما قلتُ لكما، على أن أودي بمسيرة حياة حمقاء إلى خاتمة أكثر حماقة. وعندما رأيتماني أرمي بكيس النقود في قارعة الطريق، كانت الأربعون جنيهاً قد انتهت. أنتما الآن تعرفانني كما أعرف نفسي: أحمق، ولكن ثابت في حماقتي، وصدّقاني، أنا لستُ ببكّاء ولا جبان».

من مُجمل نبرة كلام الشاب، كان واضحاً أنه يحمل أفكاراً مريرة جداً ومحتقَرة عن نفسه. دفع هذا مستمعَيه لأن يتخيّلا أن علاقة حبّه قد أثّرت فيهِ أكثر مما أقرّ، وأنه كان يضمّر خطة لإنهاء حياتهِ. وبدا أن ملهاة الفطائر بدأت تتحول إلى مأساة..

قال جيرالدين وهو يُلقي نظرة على الأمير فلوريزيل: «أليس غريباً، أن ثلاثة رجال يلتقون بمحض الصدفة في مدينة واسعة مثل لندن، يمرّون بنفس الظرف تقريباً؟».

هتف الشاب: «لماذا؟ هل أنتما مفلسان أيضاً؟ هل هذا العشاء الفاخر تمثيلية حمقاء مثل تمثيليّتي مع الفطائر؟ هل قام الشيطان بنفسه بجمعنا نحن الثلاثة لليلة عربدة أخيرة؟».

قال الأمير فلوريزيل: «كُن على يقين، أن حتى الشيطان يمكنه أحياناً أن يأتي بفعل غاية في التهذيب. لقد تأثرتُ كثيراً بهذه المصادفة، وعلى الرغم من أننا لسنا في ظروف متشابهة تماماً، لكنني سأضع حداً لهذا التفاوت. وليكن استعراضك البطولي لآخر قطع الفطائر مثالاً لي».

ما أن قال هذهِ الكلمات، حتّى سحب الأمير محفظة نقوده، وأخذ منها حزمة صغيرة من الأوراق النقدية.

قال: «كما ترى، إنني متخلّف عنك بأسبوعٍ أو نحوه، ولكني أنوي اللحاق بك ومنافستك إلى المركز الفائز». ثم تابع وهو يضع إحدى العملات الورقية على الطاولة: «هذهِ سوف تكفي للفاتورة. أما البقية..». ثم ألقى ببقية النقود إلى الموقد، فاشتعلت مع نار المدخنة في وهج واحد.

حاول الشاب الإمساك بذراعه ليوقفه، ولكن تدخلّه جاء متأخراً بسبب الطاولة التي كانت تحول بينهما.

صاح الشاب: «أيها الرجل التعيس! ما كان يجب أن تحرقها كلّها! كان يجب أن تحتفظ بأربعين جنيهاً».

كرّر الأمير: «أربعون جنيهاً! لماذا أربعون بحقّ السماء؟».

صاح العقيد: «أو لماذا ليس ثمانين؟ فبحسب علمي، من المؤكد أن هناك مئة جنيه كانت في الرزمة».

قال الشاب بتجهّم: «كل ما يحتاجه هو أربعون جنيهاً فحسب، من دونها لن يمكنه الدخول. القاعدة صارمة، أربعون جنيهاً لكلّ شخص. تعساً للحياة اللعينة، التي لا يستطيع الإنسان فيها حتى أن يموت من دون مال!».

تبادل الأمير والعقيد النظرات. ثم قال العقيد: «ماذا تقصد؟ لا تزال محفظتي محشوّة بالمال. ولا حاجة بي إلى القول إلى أي حدٍّ أنا مستعدّ لمشاركة مالي مع صديقي السيد غودال. ولكن يجب أن أعرف ما الغرض من ذلك. يجب عليك أن تخبرنا بما أنت عازم على الإتيان به؟».

انتبه الشاب فجأة، وراح ينقّل نظراته بينهما بقلق، واحتقن وجهه بشدة.

سأل الشاب: «أأنتما لا تخدعانني؟ أأنتما حقّاً رجلان مُفلسان مثلي؟».

أجاب العقيد: «من جهتي، لا شكّ في ذلك».

وأجاب الأمير: «أما أنا، فقد قدّمتُ لكَ الدليل. وهل سوى الرجل المُفلس من يرمي نقوده في النار؟ الأفعال أبلغ من الأقوال».

فأجاب الشاب مشكّكاً: «نعم، قد تكون رجلاً مُفلساً.. وقد تكون فاحش الثراء أيضاً».

قال الأمير: «هذا يكفي يا سيدي. لقد قلتُ ذلك، ولستُ معتاداً على أن يشكّك أحد في كلامي».

قال الشاب: «إذن أنت مفلس؟ ولكن هل أنت مفلس مثلي؟ وهل مثلي وصلتَ، بعد حياة من كاملة من الاستغراق في المتع وإشباع كل النزوات، إلى المرحلة التي لا يمكنك فيها إلا تحقيق رغبة أخيرة؟». ثم قال بصوتٍ خفيض: «هل ستمنحان نفسيكما الفرصة للاستمتاع بهذهِ اللذة الأخيرة؟ هل أنتما على استعداد لتجنّب عواقب حماقاتكما من خلال الطريق الوحيد المضمون والسهل؟ هل أنتما قادران على التملّص من حرّاس الضمير والهرب من خلال الباب الوحيد المفتوح؟».

فجأة انقطع الشاب عن الكلام، محاولاً الضحك.

ثم هتف وهو يفرغ كأس الشراب في جوفه: «في صحتكما! وليلة سعيدة يا رفيقيّ البهيجين المُفلسين».

أمسكه العقيد جيرالدين من ذراعه فيما كان يهمّ بالنهوض ليرحل.

قال له: «أنت لا تثق بنا، وأنت مخطئ في هذا. إن إجابتي على كل أسئلتك السابقة هي نعم. لكنني لستُ رجلاً خجولاً، ويمكنني أن أسمّي الأشياء بأسمائها الصريحة. نحن أيضاً مثلك، قضينا وطراً من الحياة، وعقدنا العزم على الموت، عاجلاً أم آجلاً، كلاً بمفرده أو معاً، نحن نبحث عن الموت لإمساكه من ذقنه ([25]). ولكن بما أننا التقينا بك، وأن قضيتك لا تسمح بأيّ تأخير، إذن فليكن في هذه الليلة وفوراً، وثلاثتنا معاً، إذا رغبت». ثم هتف قائلاً: «نحن الثلاثي المفلس، سنذهب متشابكي الأيادي، إلى مملكة بلوتو ([26])، لنواسي بعضنا البعض بين الأشباح التي تسكنها».

كان جيرالدين قد أصاب بالضبط سلوكيات ونبرات الحديث الملائمة تماماً للدور الذي كان يلعبه، حتى أن الأمير انتابه القلق، وراح يتطلّع إلى صاحبه بشيء من الارتياب. أما الشاب، فقد احمرّت وجنتاه أكثر من ذي قبل، فيما تألّقت عيناه.

وصاح ببهجة يائسة: «نعم، أنتما الرجلان المناسبان لي! لنتصافح على الاتفاق!»، (ثم مدّ يده التي كانت باردة ورطبة). ثم أردف: «ليست لديكما أية فكرة مع أية صحبة ستشرعان بالمسير! ليست لديكما أية فكرة عن اللحظة السعيدة التي حظيتما بها عندما شاركتماني فطائري القشديّة! أنا

مجرد جندي، لكنني جندي في جيش. أنا أعرف الباب السري للموت. فأنا واحد من رفاقه، ويمكنني أن آخذكما إلى الأبدية دون أية مراسيم أو فضائح».

طالباه بصبرٍ نافد تفسير ما يقصده.

لكنه بدلاً من أن يجيبهما قال: «هل يمكنكما جمع ثمانين جنيهاً في ما بينكما؟».

تظاهر جيرالدين بتفقد محفظته، وردّ بالإيجاب.

هتف الشاب: «يا لكما من كائنين محظوظين! أربعون جنيهاً هي رسم دخول نادي الانتحار للشخص الواحد».

قال الأمير بذهول: «نادي الانتحار! ما هذا بحقّ الشيطان؟».

قال الشاب: «اسمعا، نحن نعيش في عصر الراحة، لذا عليّ أن أخبركما عن أحدث وسائل الراحة. بما أنه لدينا مصالح عديدة في أصقاع الأرض، فقد اخترع البشر القطارات. وبعد أن نجحت القطارات في إبعادنا عن أصدقائنا، كان يجب اختراع التلغراف، لكي نتمكّن من التواصل بسرعة أكبر عبر المسافات البعيدة. وحتى في الفنادق صارت لدينا مصاعد لتجنيبنا صعود مئات الدرجات على السلالم. ونحن نعلم أن هذه الحياة مسرحٌ نلعب عليه دور الحمقى طالما أن الدور يسلّينا. ولكن هنالك وسيلة رفاهية أخرى تفتقر لها الحياة العصرية المريحة، طريقة لائقة وسهلة للنزول من خشبة المسرح، سلالم خلفية إلى الحرية، أو كما قلتُ قبل قليل، الباب السريّ للموت. وهذهِ الوسيلة الأخيرة للراحة، يا رفيقيّ المتمرّدين يوفّرها نادي الانتحار. ولا تفكّرا أننا، أنا وأنتما، وحيدون أو حتى استثنائيون في هذهِ الرغبة المعقولة للغاية التي نعترف أنها تراودنا. فهنالك عدد كبير من أخوتنا، قد سئموا بشدة من هذه التمثيلية التي يُتوقع منهم أن يشاركوا فيها يومياً وطوال حياتهم، ولا يمنعهم من الهرب إلا سبب واحد أو سببان اثنان من الاعتبارات والأسباب. فلدى البعض عائلات ستصاب بالصدمة أو حتى قد تتعرّض للملامة، إذا أصبحت المسألة عامة، وآخرون جبناء يتراجعون خوفاً من الظروف المتعلّقة بالموت. وأنا أنتمي إلى حد ما، للقسم الثاني. فأنا لا أستطيع وضع مسدس على رأسي وسحب الزناد، لأنه ثمة شيء أقوى مني يمنعني من الإقدام على الفعل. وعلى الرغم من أنني أبغض الحياة، لكنني لا أقوى على الذهاب إلى الموت بنفسي. من أجلي، ومن أجل كلّ من هو مثلي، ومن أجل كل أولئك الذين يرغبون بالتحرّر من قبضة الحياة من دون أن تحدث فضيحة بعد وفاتهم؛ تأسّس نادي الانتحار. كيف يُدار، وما هو تاريخه، أو ما يمكن أن

تكون تداعياته على أراضٍ أخرى، أنا نفسي غير مطلّع على ذلك، وما أعرفه عن دستوره ليس لي مطلق الحرية في مشاركته معكما. لكنني، على أية حال، على استعداد لتقديم خدمة لكما؛ إذا كنتما قد سئمتما حقاً من الحياة فسأقدّمكما في اجتماع الليلة، أو إن لم يكن الليلة فعلى الأقل في وقت ما خلال هذا الأسبوع، وستتخلّصان بكل سهولة من عبء بقائكما على قيد الحياة. إنها الآن (ونظر إلى ساعته) الحادية عشرة. ويجب علينا مغادرة هذا المكان بعد نصف ساعة على الأقل. وهكذا سيكون أمامكما نصف ساعة للتفكير في اقتراحي، لأنّ هذهِ القضية أكثر جدّية من الفطائر القشديّة». وأضاف بابتسامة: «وألذّ منها كما أعتقد».

علّق العقيد جيرالدين قائلاً: «أنت محق في أنها أكثر جدية، وبما أنها قضية جادة وخطيرة، هلّا سمحت لي بحديث على انفراد لخمس دقائق مع صديقي السيد غودال؟».

أجاب الشاب: «من حقك. سأترككما قليلاً لتتشاورا، بعد إذنكما».

قال العقيد: «سيكون هذا كرماً منك».

وما أن باتا بمفردهما، حتّى قال الأمير فلوريزيل: «ما الغرض من هذه المشاورة يا جيرالدين؟ أرى أنّك حائر في حين أنّي اتخذتُ قراري بعقل هادئ. سأرى نهاية هذا الأمر».

قال العقيد، وقد شحب وجهه: «يا صاحب السمو، اسمح لي أن أطلب منك أن تضع في اعتبارك أهمية حياتك، ليس فقط لأصدقائك، بل للمصلحة العامة. هذا الرجل المجنون يقول «إن لم يكن الليلة»، ولكن لنفترض أن الموعد سيكون في هذه الليلة، وحلّت بسموّكم مصيبة يتعذّر تداركها، اسمح لي أن أسألك، أي يأس سيصيبني، وأي قلق وكارثة ستقع على الأمة العظيمة؟».

كرّر الأمير قوله بنبرة حازمة: «سأرى نهاية هذا الأمر. ولتتلطف يا عقيد جيرالدين، بتذكّر واحترام كلمتك كرجل نبيل، وضع في حسبانك، أنني لا أسمح لك دون أمر مني، تحت أي ظرف من الظروف، بكشف اسمي المستعار الذي اخترتُ الخروج بهِ. هذه كانت أوامري سابقاً، والآن أعيدها عليك». وأضاف: «والآن، اطلب الفاتورة».

انحنى العقيد جيرالدين في إذعان، لكن وجهه كان شاحباً للغاية وهو يستدعي الشاب صاحب الفطائر القشديّة، ويصدر توجيهاته إلى النادل. حافظ الأمير على سلوكه الهادئ، وراح يصف للشاب العازم على الانتحار آخر مسرحية حضرها في المسرح الملكي (البالاز رويال) في باريس.

وتجنّب بمهارة نظرات العقيد المُناشِدة، واختار لفافة (جروت) أخرى باهتمامٍ أكثر من المعتاد وجلس يدخن بهدوء. في الواقع، كان الرجل الوحيد في المجموعة الذي بقي محافظاً على هدوء أعصابه.

سُدّدت الفاتورة، وترك الأمير باقي الحساب كاملاً للنادل المذهول. ثم انطلق الثلاثة في عربة خيول للأجرة بأربع عجلات. لم يمضِ وقت طويل قبل أن تتوقف العربة عند مدخل زقاق مضاء بأنوار خافتة. هنا نزل الجميع.

بعد أن دفع جيرالدين الأجرة إلى سائق العربة، استدار الشاب، وخاطب الأمير فلوريزيل قائلاً:

«سيد غودال، لا يزال أمامك وقت كافٍ لكي تفرّ عائداً إلى قيود العبودية. وأنت أيضاً أيها الرائد هامرسميث. فكّراً جيداً قبل أن تخطوا خطوة أخرى، ومن حدّثه قلبه بكلمة لا، فهذا مفترق الطرق».

قال الأمير: «تقدّم الطريق أمامنا يا سيدي، فلست أنا بالرجل الذي يتراجع عن كلامه».

أجاب دليلهما: «أنا معجب بجسارتك. لم أرَ قطّ شخصاً سواك لم يتهيّب هذا الوضع، مع أنني اصطحبتُ الكثيرين إلى هذا الباب. لقد سبقني العديد من أصدقائي إلى حيثُ أعلم أنني يجب أن أتبعهم قريباً. ولكن، ما شأنك وهذا الحديث؟ انتظرني هنا لبضع دقائق فقط، وسأعود حالما أقوم بالترتيبات التمهيدية لتقديمكما».

ثم لوّح الشاب بيده إلى رفيقيه الجديدين، واستدار إلى الزقاق المظلم، وولج في أحد الأبواب ثم اختفى.

قال العقيد جيرالدين بصوت خفيض: «من بين كل حماقاتنا، هذه هي الأكثر طيشاً والأشد خطورة».

ردّ الأمير: «أوافقك الرأي تماماً».

تابع العقيد قائلاً: «لا يزال أمامنا وقت لإعادة النظر. اسمح لي أن أناشدك يا صاحب السمو أن تستغل هذه الفرصة وتتراجع. إن عواقب هذه الخطوة وخيمة للغاية، وقد تكون خطيرة جداً، إلى الحد الذي أشعر معه بأنني معذور فيما لو تعدّيتُ، أكثر من اللازم، حدودي في رفع الكلفة التي يتنازل سموّكم ويسمح لي بها عندما نكون على انفراد».

«هل أفهم من هذا أن العقيد جيرالدين خائف؟» سأل صاحب السمو، رافعاً لفافة الجروت من بين شفتيه، ممعناً النظر في وجه الآخر.

ردّ الآخر باعتزاز: «إن خوفي بالتأكيد ليس على نفسي. فليطمئن سموّكم من هذه الناحية».

قال الأمير بمزاجٍ منشرح: «لا أشكّ في ذلك. لكنني لم أكن أرغب في تذكيرك بالفرق بين مقامَينا». وأضاف قائلاً، وهو يرى جيرالدين على وشك الاعتذار: «يكفي.. يكفي.. لقد عذرتُكَ».

وراح يدخّن بهدوء، متّكئاً على سور الحديقة، إلى أن عاد الشاب.

سأله: «إذن، هل تمّت ترتيبات استقبالنا؟».

فكان الرد: «اتبعاني. سيلتقيكما الرئيس في مكتبه. واسمحا لي أن أذكّركما محذّراً أن تكونا صريحين في إجاباتكما. لقد كفلتُكما، لكن قوانين النادي تستوجب إجراء تحقيق أوّلي قبل قبول أعضاء جدد، لأن طيش عضو واحد من شأنه أن يؤدي إلى تشتّت المجتمع كله إلى الأبد».

تهامس الأمير وجيرالدين للحظة، قال الأول: «سأقول هكذا وساندني»، وقال الثاني: «وأنا سأقول هكذا وساندني». وبعد أن حدّدا بكل جرأة شخصيتي رجلين من معارفهما المشتركين لكي يلعبا دوريهما، توصلا إلى اتفاق في طرفة عين، وكانا على استعداد لمتابعة دليلهما إلى مكتب الرئيس.

لم تكن هناك عراقيل هائلة لتجاوزها. كان الباب الخارجي مفتوحاً، وباب المكتب مواربا. كان المكتب غرفة صغيرة ولكن بسقفٍ عالٍ، وهنا تركهم الشاب مرّة أخرى.

وقبل أن يغادر المكتب، أومأ الشاب قائلاً: «سيوافيكما الرئيس في الحال».

كانت هنالك أصوات مسموعة عبر الباب القابل للطيّ الذي شكّل أحد جوانب المكتب، وبين الحين والآخر، وسط أصوات المتحدّثين العالية، يدوّي صوت فرقعة سدادة زجاجة شمبانيا وهي تُفتح، متبوعاً بموجة من الضحك. كانت هنالك نافذة طويلة واحدة مطلّة على النهر. ومن خلال ترتيب مصابيح الشارع قدّرا أنهما كانا بالقرب من محطة قطارات تشارينغ كروس.. كان المكتب مؤثّثاً بشكل فقير، وكانت الأفرشة مهلهلة، ولم يكن هناك شيء يمكن تحريكه أو نقله، باستثناء جرس يدوي استقرّ وسط مائدة مستديرة، وقبعات ومعاطف بعدد كبير تدلّ على وجود ضيوف كثيرين، معلقة على مشاجب في الحائط.

قال جيرالدين: «أيّ نوع من الأوكار هذا؟».

أجاب الأمير: «هذا ما جئت لأراه. وإن كان فيهم شياطين حيّة في المبنى، فقد يصبح الأمر ممتعاً».

في هذه اللحظة فُتح الباب القابل للطي بما يكفي لمرور شخص واحد فقط، ودخل في نفس الوقت الضجيج العالي للأحاديث والرئيس المهيب لنادي الانتحار. كان رجلاً في بداية عقده الخامس من العمر، يمشي متثنياً بخطى واسعة، كان له سالفان أشعثان، وقمة رأس صلعاء، وعينان رماديتان غامضتان، ينبعث منهما بريق بين الحين والآخر. كان فمه يحتضن سيجاراً كبيراً، ظلّ يُديره مراراً وتكراراً ويقلّبه من جانب إلى آخر، فيما راح يتفحّص بنظرة ثاقبة باردة الرجلين الغريبَين. كان يرتدي بدلة من قماش التويد فاتحة اللون، تحتها قميص مقلّم بياقة كاشفة للعنق، ويتأبّط سجلاً تحت إحدى ذراعيه.

قال بعد أن أغلق الباب خلفه: «مساء الخير. قيل لي إنكما ترغبان في التحدّث معي».

أجاب العقيد: «نحن نرغب بالانضمام إلى نادي الانتحار يا سيدي».

قلّب الرئيس سيجاره في فمه. ثم قال بحدّة: «وما هذا؟».

ردّ العقيد: «عذراً، ولكنّي أعتقد أنّك الرجل المناسب الذي يمكنه تزويدنا بمعلومات حول هذه المسألة».

صاح الرئيس: «أنا؟ نادي انتحار؟ هيا، هيا! هل هذهِ دعابة كذبة أبريل؟ يمكنني أن ألتمس العذر للسادة الذين يرغبون بالمزاح عندما يكونون ثملين، ولكن هنالك حدود لكل شيء».

قال العقيد: «سمِّ ناديكَ ما شِئت، ولكن أرى أن لديك بعض الصحب وراء هذه الأبواب، ونحن نصرّ على الانضمام إليهم».

أجاب الرئيس بفظاظة: «سيدي، لقد ارتكبتَ خطأ. هذا منزل خاص، ويجب أن تغادره على الفور».

ظل الأمير جالساً في مقعده بهدوء طوال هذه المحادثة الصغيرة، لكنه عندما رأى العقيد وهو يرمقه بنظرة يقول فيها له: «هذهِ إجابتك فاقبل بها ولنخرج من هنا بحق السماء!». عندها سحب سيجار الجروت من فمه، وقال: «لقد أتيت إلى هنا، بناء على دعوة من صديق لك. لقد أبلغك بلا شكّ بنيتي في اقتحام جمعكم. واسمح لي أن أذكّرك بأن شخصاً في مثل ظروفي ليس لديه الكثير مما يقيّده، وليس من المرجّح على الإطلاق أن يتحمّل الكثير من الفظاظة. أنا في العادة رجل هادئ للغاية، ولكن يا سيدي

العزيز، عليّ تحذيرك، إما أن تتكرّم وتلبّي طلبي في الأمر الذي أنت مطلّع عليه، أو ستندم بمرارة لأنك أدخلتني إلى غرفة استقبالك».

ضحك الرئيس بصوت عالٍ.

قال: «هذا هو الأسلوب الصحيح للتحدّث. أنت رجل بكل ما تحمل الكلمة من معنى. تعرف الطريق إلى قلبي، ويمكنك أن تفعل ما تريد». وتابع قوله، مخاطباً جيرالدين: «هلّا تنحّيت جانباً لبضع دقائق؟ سأنتهي من رفيقك أولاً، لأن بعض الإجراءات الروتينية للانتماء للنادي تتطلب الخصوصية».

وما أن قال هذه الكلمات حتى فتح باب حجرة صغيرة، فدخل فيها العقيد وأغلق الرئيس الباب ورائه.

ثم قال لفلوريزيل حالما باتا بمفردهما: «أنا أصدّقك، ولكن هل أنت واثق من رفيقك؟».

أجاب فلوريزيل: «ليس بقدر ما أنا واثق من نفسي، رغم أني أعلم أنه يملك أسباباً أكثر إقناعاً. لكنني واثق منه بما يسمح لأحضره إلى هنا دون تردّد. لقد مرّ بما يكفي لشفاء رجلٍ متشبث بعنادٍ في الحياة من عناده. لقد تم طرده من الجيش قبل أيام بسبب تلاعبه ببعض الأوراق.«

أجاب الرئيس: «أجرؤ على قول إنه سبب جيد. على الأقل لدينا رجل آخر بحالة مشابهة، وأنا واثق منه. وهل لي أن أسألك إن كنتُ أيضاً قد انضممتَ إلى الخدمة العسكرية؟».

كان الردّ: «نعم. لكنني كنت كسولاً جداً، لذا تركتها مبكراً».

واصل الرئيس الحديث قائلاً: «لماذا سئمت البقاء على قيد الحياة؟».

أجاب الأمير: «للسبب نفسه، الكسل المحض، هذا هو الجواب الوحيد الذي باستطاعتي التفكير به».

جفل الرئيس وصاح قائلاً: «اللعنة! هذا ليس سبباً جيداً بما فيه الكفاية، عليك أن تأتي بشيء أفضل».

عندها أضاف فلوريزيل: «لقد نفدت نقودي. ولا شكّ أن هذا سبب كافٍ للشعور بالضيق. لأنه يجعل إحساسي بالكسل يصل إلى أبلغ حدٍ».

برم الرئيس سيجاره في فمه لبضع ثوان، وهو يحملقُ في عيني هذا العضو المستجد غير العادي، لكن الأمير قابل تدقيقه بهدوء وثبات.

قال الرئيس أخيراَ: «لو أنني لم أمتلك قدراً كبيراً من الخبرة لكنتُ رفضتُ طلبك. لكنني أعرف العالم، أو أعرفه بالقدر الذي يجعلني أفهم أنه غالباً ما تكون أكثر أعذار الانتحار تفاهة هي الأكثر إقناعاً. وعندما أعجب برجلٍ، كما أُعجبتُ بك يا سيدي، فإنني أفضّل الالتفاف على القوانين على أن أرفض له طلباً».

خضع الأمير والعقيد الواحد تلو الآخر إلى استجواب طويل ومفصّل، الأمير على انفراد، أما جيرالدين فاستجوابه كان بحضور الأمير، حتى يتمكن الرئيس من مراقبة ملامح واحدٍ بينما يُخضع الآخر لاستجواب عسير. كانت النتيجة مُرضِية. وبعد أن قام الرئيس بتدوين بعض التفاصيل والمعلومات عنهما في سجله، قدّم إلى كل واحدٍ منهما وثيقة تعهّد، يجب توقيعها لكي يتم قبول عضويتهما في النادي. لا يمكن تصوّر أي شيء أكثر استعباداً من التعهد بالطاعة، أو أكثر صرامة من الشروط التي يربط بها المحلّف نفسه. وإن الرجل الذي يحنث بيمين غليظ كهذا بالكاد يُبقي لنفسه فضلة شرفٍ أو أي عزاء ديني. وقّع فلوريزيل الوثيقة، وهو مقشعّر البدن. وحذا العقيد حذوه في جوٍ من الوجوم الشديد. ثم تسلّم الرئيس رسوم الدخول، ودون مزيدٍ من الكلام، أدخل الرفيقين إلى غرفة التدخين في نادي الانتحار.

كان سقف غرفة التدخين في نادي الانتحار بنفس ارتفاع سقف المكتب الذي يُفضي إليها، ولكن غرفة التدخين كانت أوسع بكثير، وكانت جدرانها مكسوة من أعلاها إلى أسفلها بورق جدران يُحاكي ألواح البلوط الخشبية. كانت الغرفة تُضاء بنار كبيرة مبهجة في الموقد وعدد من فوانيس الغاز على الجدران. ومع وصول الأمير وتابعِه صار عدد الحضور ثمانية عشر رجلاً. معظمهم كانوا يدخنون ويشربون الشمبانيا، كان يسود الغرفة جوّ من المرح المحموم، ولكن بين الحين والآخر تحصل لحظات صمت مفاجئة، ونوعاً ما مخيفة.

سأل الأمير: «هل هذا اجتماع كامل النصاب؟».

قال الرئيس: «بين بين». ثم أضاف: «بالمناسبة، إذا بقي لديك شيء من المال، من المعتاد هنا تقديم بعض الشمبانيا. إنها تُبقي على المزاج طيباً، علاوة على أنها تجلب دخلاً إضافياً صغيراً لي».

قال فلوريزيل: «هامرسميث، سأترك الشمبانيا عليك».

ثم استدار وبدأ جولة بين الضيوف. ولكونه معتاداً على أن يلعب دور المضيّف في الأوساط الراقية، فقد سحر وهيمن على كل من تحدّث معه. كان في حديثه شيء فاتن وسُلطويّ في الوقت نفسه، كما أن وقاره

الاستثنائي منحه تميّزاً إضافياً في وسط هذا المجتمع نصف المعتوه. أثناء انتقاله من شخصٍ إلى آخر، أبقى على عينيه مفتوحتين وعلى أذنيه مرهفتي السمع، وسرعان ما بدأ يكتسب فكرة عامة عن الأشخاص الذين وجد نفسه بينهم. وكما هو الحال في جميع الأوكار التي هي من هذا النوع، فإن هذا المكان يرتاده نوع معيّن؛ أشخاص في أوج الشباب، تبدو على هيئاتهم سِمات الذكاء والإحساس، لكنّهم يفتقرون إلى القوة أو الصفة المعيّنة التي بدونها لا ينجح المرء. كانت قلّة منهم قد تجاوزوا بالكاد سن الثلاثين، حتى أن ثمّة عدداً غير قليل منهم لا يزالون في عمر المراهقة. كانوا يقفون مُتّكئين على الطاولات وهم يراوحون في أماكنهم. أحياناً يدخّنون بسرعة ملحوظة، وأحياناً يتركون سجائرهم إلى أن تنطفئ وحدها. كان بعضهم يحسنون الحديث، وبعضهم الآخر يتّضح أن حديثهم كان ناتجاً عن توتّر عصبي، وقد خلا من الذكاء أو المعنى على حدٍّ سواء. ومع فرقعة كل زجاجة جديدة من الشمبانيا، كان هناك تحسّن واضح في المزاج. ومن بين المجموعة كلّها كان هناك اثنان فقط يجلسان؛ واحد على كرسي بالقرب من النافذة، برأس مطرق ويدين مدسوستين عميقاً في جيبي سرواله، شاحب الوجه، لا ينبس ببنت شفة، مخضلاً بالعرق بشكل ملحوظ، محطّماً روحياً وجسدياً. فيما جلس الآخر على أريكة بالقرب من المدخنة، وكان يلفت الانتباه بسبب اختلافه الحاد عن البقية. ربما لم يكن يتجاوز الأربعين إلا ببضع سنوات، لكنه بدا أكبر من عمره بعقدٍ من السنوات. فكّر فلورِيزيل بينه وبين نفسه، أنه لم يرَ أبشع من هذا الرجل، أو رجلاً فتكت به الأمراض والحياة الجامحة قط. كان عبارة عن جلد وعظم، نصف مشلول، ويضع نظارة بسماكة غير اعتيادية، حتى أن عينيه بدتا من خلفها ضخمتين ومشوّهتين بشكل كبير. وباستثناء الأمير والرئيس، كان هو الشخص الوحيد في الغرفة الذي حافظ على هدوء أعصابه.

لم تكن هنالك أيّة حشمة أو لياقة بين أعضاء النادي. فراح بعضهم يتبجّح بالأفعال الفاضحة التي اقترفها، والتي أدّت عواقبها إلى سعيهم في طلب الموت خلاصاً منها، فيما يستمع الآخرون بلا أي استهجان. كان هناك اتفاق غير معلن ضد إصدار بعضهم للأحكام الأخلاقية على البعض الآخر، كان كل من اجتاز أبواب النادي يتمتّع ببعض حصانات القبر. كانوا يشربون الأنخاب في ذكرى بعضهم بعضاً، وذكرى الانتحارات الجِسام في الماضي، ويقارنون بين وجهات نظرهم المختلفة حول الموت، فيُصرّح بعضهم أن الموت ليس سوى ظلمة وفناء، بينما كان آخرون مفعمين بأمل أنهم سيرتقون إلى النجوم ويظفرون بصحبة الموتى العظماء.

هتف أحدهم: «إلى ذكرى البارون ترينك الخالدة، قدوة المنتحرين! لقد خرج من زنزانة الحياة الضيقة، ودخل سجناً أضيق، لكيما يخرجُ منه إلى الحرية».

قال ثانٍ: «من جهتي، لم أكن أرغب بأكثر من عصابة لأغشي بها عينيّ وقطنٍ لأسدّ بهِ أذنيّ. ولكن يا للأسف! ليس في هذا العالم كلّه قطن سميك بما يكفي».

كان الثالث يرغب في الانتحار مفترضاً أنه في حالته المستقبلية سيكون قادراً على فكّ أسرار الحياة. وصرّح الرابع أنه لم يكن لينضم إلى النادي لولا أن إيمانه بنظرية السيد داروين قد دفعه لذلك.

قال هذا الانتحاريّ المتفرّد: «لا يمكنني تحمّل فكرة أني سليل قرود».

إجمالاً، أُصيب الأمير بخيبة أمل من سلوك الأعضاء وحديثهم.

فكّر: «وهل هذا أمر يستحق الكثير من الهرج؟ إذا قرّر رجل أن يقتل نفسه، فلمَ لا يفعل ذلك بحق السماء، مثل رجل نبيل. لا داعي لكل هذا اللغط وهذه الثرثرة».

في هذه الأثناء كان العقيد جيرالدين فريسة لأشد المخاوف إعتاماً. كان النادي وقواعده لا يزالان لغزاً غامضاً بالنسبة له، فراح يجيل ببصره حول الغرفة باحثاً عن أي شخص يريح باله. فوقعت عيناه على الرجل المشلول ذي النظارة السميكة، إذ أعجب بهدوئه الشديد، وناشد الرئيس، الذي كان يدخل ويخرج من الغرفة تحت ضغط العمل، أن يقدمه إلى السيد الذي يجلس على الأريكة.

بيّن الرئيس أنه لا ضرورة لكل هذه الشكليات داخل النادي، لكنه مع ذلك قدّم السيد هامرسميث إلى السيد مالتوس.

نظر السيد مالتوس إلى العقيد بفضول، ثم طلب منه الجلوس إلى يمينه.

قال: «أنت وافد جديد، وترغب بالحصول على بعض المعلومات أليس كذلك؟ حسناً، لقد جئتَ إلى المكان الصحيح. مرّ عامان منذ أن زرتُ هذا النادي الساحر لأول مرة».

تنفس العقيد الصعداء، لأنه إذا كان السيد مالتوس قد تردّد على المكان لمدة عامين وما زال على قيد الحياة، فليس من المرجّح أن يتعرّض الأمير للخطر من أول ليلة. ومع ذلك ظل جيرالدين مشدوهاً، وبدأ يساوره الشكّ في وجود خدعة.

صاح قائلاً: «ماذا! عامان! لقد ظننتُ.. هكذا إذن.. أرى أنني صرت هدفاً لمزحة».

أجاب السيد مالتوس بلباقة: «كلا، إطلاقاً. لكن حالتي خاصة. أنا لستُ انتحارياً، بمعنى الكلمة، ولكنني، كما يُقال، عضو فخري في النادي. أنا لا أتردد إلى هذا المكان إلا نادراً، أحياناً مرة في الشهر. لقد مُنحت هذا الاستثناء بسبب مرضي وكرم الرئيس، إضافة إلى أنني أدفع مقابل ذلك رسماً أعلى من البقية. ومع ذلك فأنا أعتبر نفسي محظوظاً جداً».

قال العقيد: «أرجو المعذرة، ولكن أخشى أنني مضطرٌّ لأن أطلب منك أن تكون أكثر وضوحاً. فكما تعرف، أنا ما زلت جاهلاً بقوانين النادي».

أجاب الرجل المُقعد: «إن العضو العادي الذي يأتي إلى هنا بحثاً عن الموت، مثلك، يجب أن يعود كل مساء إلى أن يحالفه الحظّ. ويمكنه، حتى لو كان مفلساً أن يحصل من الرئيس على طعام ومسكن، نظيف ومقبول كما أعتقد، ولكن بالطبع ليس فاخراً. فالرفاهية غير ممكنة، لو أُخِذت في نظر الاعتبار رسوم الاشتراك -وعذراً منك- الزهيدة. أضف إلى ذلك، أنه سيحظى برفقة الرئيس، وهذهِ بحد ذاتها رفاهية».

قال جيرالدين متعجّباً: «حقاً! لا أرى في رفقة الرئيس أية ميزة، لأنه بصراحة لم يُعجبني كثيراً».

قال السيد مالتوس: «أوه! أنت لا تعرف الرجل حقّ المعرفة، إنه مُسلٍّ! يا لقصصهِ! يا لسخريتهِ! لقد خبر الحياة لحدّ يثير الإعجاب، وبيني وبينك، ربما يكون أكثر الأوغاد فساداً في كل العالم المسيحيّ».

سأل العقيد: «وهل هو أيضاً عضو دائم مثلك؟».

أجاب السيد مالتوس: «في الحقيقة، إنه دائم بمعنى مختلفٍ تماماً عني، أنا أستغل لأقصى حدٍّ مهلة التأجيل التي مُنحت لي بكل سخاء، ولكن في النهاية يجب أن أرحل. أما الرئيس فلا يلعب أبداً، إنه يكتفي بخلط وتوزيع الورق للنادي واتخاذ الترتيبات اللازمة. هذا الرجل، يا عزيزي سيد هامرسميث، تجسيد للبراعة، فمنذ ثلاث سنوات وهو يعمل في لندن في مهنته النافعة – وإذا جاز لي أن أضيف- والخلّاقة. وطوال هذه الفترة كلها لم ترتفع حوله ولا حتى لمرة همسة شكّ. أنا أؤمن أنه مُلهَم. لا شكَّ أنك تتذكّر تلك القضية الشهيرة التي حدثت قبل ستة أشهر، للرجل الذي تسمّم بالخطأ في متجر الأدوية؟ كانت تلك واحدة من أقلّ بنات أفكاره إذهالاً، ولكن، يا لها من فكرة بسيطة ومضمونة النتائج!».

قال العقيد: «لقد صدمتني! هل كان هذا الرجل البائس أحد..». ثم أمسك عن الكلام. كان على وشك أن يقول «الضحايا»، لكن مع إعادة التفكير في الوقت المناسب استبدل الكلمة بـ «أعضاء النادي؟».

وخطر له في نفس اللحظة أن السيد مالتوس نفسه لم يكن يتحدث على الإطلاق بنبرة شخص يرغب في الموت، فأضاف على عجل:

«لكني ما زلت أجهل ما يدور هنا. أنت تتحدث عن خلط وتوزيع الورق، فأخبرني أرجوك ماذا تقصد؟ وبما أنك كما أرى غير راغب بالموت، بل وترغب في تأجيله، فيجب أن أعترف أنني لا أفهم ما الذي يحملك على المجيء إلى هنا أصلاً».

أجاب السيد مالتوس بمزيد من الحيوية: «أنت حقاً، كما تقول، ما زلتَ تجهل ما يحدث هنا. يا سيدي العزيز، هذا النادي معبدٌ للثمالة. ولو أن صحّتي الواهنة تعينني على تحمّل الإثارة، فكُن على يقين أنّك ستجدني هنا كثيراً. لكن إحساسي بالمسؤولية الذي نتج من اعتيادي الطويل على المرض والحمية الصارمة، هو الشيء الوحيد الذي يمنعني من الانغماس في ما يمكنني أن أقول إنه آخر ملّذاتي». ثم وضع يده على ذراع جيرالدين وأردف: «لقد جرّبتُ كل أنواع الملّذات يا سيدي، كلّها دون استثناء، وأقسم لك بشرفي، أنني وجدتُ أنها كلّها مُبالغ بها بفداحة وبهتان. الناس يعبثون مع الحبّ، ولكني أرفض الاعتقاد بأن الحبّ هو أقوى عواطف الإنسان. الخوف هو أقوى عواطف الإنسان. لذا، إذا رغبتَ بأن تختبر أشدّ مباهج كونك على قيد الحياة، فيجب أن تعبث مع الخوف». ثم أضاف وهو يضحك ضحكة مكتومة: «احسدني... احسدني يا سيدي، لأنني رجلٌ جبان!».

وبالكاد تمكّن جيرالدين من قمع ردّة فعل أوشكت أن تفلت منه بسبب نفوره من هذا الكائن البغيض الذي يُرثى له، لكنّه جاهد نفسه لكي يتحلّى بالصبر، واستمر في استفساراته.

سأله: «وكيف يا سيدي يمكن إطالة فترة المتعة؟ وهل يتدخل عنصر الشكّ في الأمر؟».

أجاب السيد مالتوس قائلاً: «سأخبرك كيف يتمّ اختيار الضحية كل مساء. ليس فقط الضحية، ولكن يتم اختيار عضو آخر، ليكون أداة التنفيذ في يد النادي، وكاهن الموت الأعلى في تلك المناسبة».

هتف العقيد متعجّباً: «ربّاه! هل يقتل أعضاء النادي بعضهم بعضاً؟».

أشار مالتوس برأسه بالإيجاب قائلاً: «بهذه الطريقة يتخلّص العضو من عبء الإقدام على الانتحار».

صاح العقيد: «رحماك يا رب! هل يمكن أن.. هل يمكن لأيّ منا، أعني أنا وصديقي.. هل يمكن أن يقع الاختيار على أي منا ليزهق حياة رجل آخر هذه الليلة؟ هل يمكن أن يحدث هذا بين «المولودين من النساء»؟ ([27]) يا لعار كلّ العارات!».

كان جيرالدين يهمّ بالنهوض منتفضاً من شدة الرعب والغضب، عندما وقع بصره على الأمير. كان يحدّق فيهِ من الناحية الأخرى في الغرفة بنظرة غاضبة عابسة. فاستعاد جيرالدين هدوءه ولزم مكانه.

أضاف: «على أية حال، لم لا؟ وبما أن اللعبة كما قلتَ ممتعة، فكما يقول المثل «فوغ لا غاليير» ([28]) سأتبع النادي!».

كان السيد مالتوس مستمتعاً للغاية برؤية العقيد مذهولاً ومشمئزاً. كان يتمتّع بغرور من نوع خاص، غرور بالخبث، فكان يُسرّ عندما يرى رجلاً آخر يستسلم للمشاعر النبيلة، فيشعر بنفسه، بفساده النزيه، متفوقاً على مثل هذه المشاعر.

قال: «والآن بعد أن تجاوزتَ هول المفاجأة الأولى، يمكنك تقدير مباهج مجتمعنا، الذي يجمع كما ترى بين إثارة طاولة القمار والمبارزة والمدرج الروماني. لقد قام الوثنيون بعملٍ جيد بما فيهِ الكفاية، وأنا معجبٌ بمدى رقيّ عقولهم، ولكن بلوغ هذا الحدّ المتطرّف، هذا الجوهر، هذه العاطفة المطلقة، أمر منوط ببلدٍ مسيحيّ. هل فهمتَ الآن لماذا تبدو كل أنواع اللهو الأخرى ماسخة للرجل الذي ذاق هذهِ اللذة القصوى؟». ثم أردف: «إن لعبتنا تتّسم بالبساطة الشديدة، نحن نلعب بمجموعة ورق كاملة... ولكن انظر، لن أشرح لك اللعبة، فها أنت على وشك أن تشهدها بنفسك. هلّا مددت يدك لمساعدتي على النهوض؟ أنا مع الأسف رجل مشلول».

وفعلاً، ما أن بدأ السيد مالتوس في وصف اللعبة، حتى فُتِح فجأة زوج آخر من الأبواب القابلة للطيّ، واجتازه أعضاء النادي كلّهم، بشيء من العجلة، إلى الغرفة المجاورة. كانت مماثلة في كل شيء للغرفة التي خرجوا منها للتو، لكنها كانت مفروشة بشكل مختلف إلى حد ما. احتلت طاولة لعب ورق خضراء طويلة وسط الغرفة. جلس الرئيس إلى الطاولة وهو يخلط حزمة من أوراق اللعب بتدقيق شديد. وحتى مع وجود العكّازة وذراع العقيد التي تسنده، كان السيد مالتوس يمشي بمشقّة كبيرة، لدرجة أنهما عندما دخلا الغرفة، كان جميع أعضاء النادي جالسين حول الطاولة. دخل الأمير خلف

الثنائي، وجلس الثلاثة في مقاعد متقاربة في الطرف القصيّ من طاولة اللعب.

همس السيد مالتوس: «هنالك اثنتان وخمسون ورقة لعب. راقب آس البستوني، إنه علامة الموت، وآس السباتي، الذي سيُحدّد المنفّذ لهذه الليلة». وأضاف: «يا لسعادتكم أيها الشباب! لا تزالون تملكون عيوناً حادة البصر، ويمكنكم متابعة اللعبة. أما أنا، فيا حسرتي! لا أستطيع حتى تمييز ورقة آس من ورقة اثنين من هذهِ المسافة عبر الطاولة».

بهذه الكلمات أخرج زوج نظارات آخر ثم ارتداه وأوضح قائلاً: «هكذا يمكنني مراقبة ملامح الوجوه على الأقل».

أبلغ العقيدُ رفيقه في عجالة بكل ما عرفه من العضو الفخري، وأخبره عن الاختيار الرهيب الذي كان بانتظار الجميع. شعر الأمير بقشعريرة مخيفة تجري في عروقه وانقبض قلبه. ابتلع ريقه بصعوبة، وراح يجول ببصره من جانب إلى آخر، مثل رجل مشدوه.

همس العقيد في أذن الأمير: «ضربة واحدة جريئة ويمكننا الهرب».

لكن اقتراح الهرب قد أعاد للأمير رباطة جأشه.

قال: «اصمت! دعني أرى أنه يمكنك أن تلعب مثل أيّ رجل نبيل في أي رهان، مهما كان خطيراً».

ثم راح يتطلّع حوله ثانية، وبدا هادئاً أمام الجميع، على الرغم من أن قلبه كان ينبض بقوة، وكان يشعر بحرارة مزعجة تستعر في صدره. كان الأعضاء صامتين ومركّزين، وجميعهم شاحبي الوجوه، لكن لا أحد منهم كان بمثل شحوب السيد مالتوس. كانت عيناه جاحظتين. وظلّ رأسه يومئ بنحو خارج عن سيطرته، وامتدّت يداه مرّة تلو الأخرى إلى فمه، لتنشبان بشفتيه المرتعشتين الشاحبتين. كان من الواضح أن العضو الفخري قد تمتّع بعضويته تحت شروط مفزعة للغاية.

قال الرئيس: «انتباه أيها السادة!».

ثم بدأ يوزع أوراق اللعب حول الطاولة بعكس الاتجاه المتعارف عليه، ابتداء من يساره، وكان يتوقّف بشكل مؤقّت ريثما يكشف كل رجل ورقته. كان كل واحد منهم تقريباً يتردّد هنيهة قبل أن يكشف ورقته. وأحياناً يمكنك أن ترى أصابع اللاعب تتعثّر أكثر من مرة قبل أن يتمكّن أخيراً من قلب الورقة المصيرية. ومع اقتراب دور الأمير، تزايد شعوره بالإثارة إلى حدٍ خانقٍ تقريباً. لكنه كان يملك شيئاً من طبيعة المقامِر، وأقرّ بينه وبين نفسه بشيء من

الدهشة، أنه كان يشعر بشيء من اللذة. كانت ورقة التسعة السباتي من نصيبه. وورقة الثلاثة البستوني من نصيب جيرالدين. وورقة ملكة القلوب من نصيب السيد مالتوس، الذي لم يستطع أن يكتم تنهيدة ارتياح حالما رآها. عقبها على الفور قلَب الشاب صاحب الفطائر القشديّة ورقته، وكانت آس السباتي، فتسمّر من الرعب، وبقيت الورقة بين أصابعه. إنه لم يأت إلى هنا ليَقتُل، بل ليُقتل. فكاد الأمير أن ينسى الخطر الذي لا يزال يحدق به وبصديقه من شدة تعاطفه مع موقف الشاب. وزع الرئيس الأوراق ثانية، ولم تظهر ورقة الموت بعد. حبس اللاعبون أنفاسهم ولم يتنفسوا إلا لهاثاً. تلقّى الأمير ورقة سباتي أخرى، وجيرالدين ورقة دیناري. ولكن عندما قلب السيد مالتوس ورقته صدر من فمه صوت مرّوع، مثل صوت شيء ينكسر، فنهض من مقعده وجلس مرة أخرى، دون أية علامة على الشلل. كانت ورقة آس البستوني من نصيبه. في بحثه المحموم عن اللّذائذ القصوى، تمادى العضو الفخري للنادي في العبث مع الخوف، وفي هذه المرة وصل الأمر إلى النهاية.

وتقريباً على الفور استُؤنفت الأحاديث مرة أخرى. تحرّر اللاعبون من جمودهم، وبدأوا في النهوض من الطاولة، ثم عادوا مثنى وثُلاث إلى غرفة التدخين. مدّ الرئيس ذراعيه وتثاءب، مثل رجل أنهى يوماً طويلاً من العمل. لكن السيد مالتوس ظل جالساً في مقعده، رأسه بين راحتيه، ومرفقاه على الطاولة، ثملاً وبلا حراك، ومحطّماً كلياً. همّ الأمير وجيرالدين بالفرار في الحال. وفي هواء الليل البارد تضاعف رعبهما مما شهداه.

صاح الأمير: «ويحي! يا لمشقّة الالتزام باليمين في قضية كهذهِ! كيف يمكنني السماح بمواصلة تجارة القتل بالجملة، بل وجني الأرباح منها والإفلات من العقاب! آه لو كان بإمكاني أن أحنث بيميني!».

أجاب العقيد: «إن هذا أمر مستحيل على سموّكم، لأن شرفكم هو شرف بوهيميا. بينما أنا من الناحية الأخرى، يمكنني الحنث بيميني».

قال الأمير: «جيرالدين، إذا طُعنت في شرفك بسبب المغامرات التي أشركتُك فيها، فأنني لن أكتفي بعدم مسامحتك فحسب، بل لن أسامح نفسي، وهو ما أعتقد أنه سيؤذيك أكثر».

أجاب العقيد: «تحت أمر سموّكم. هلّا هربنا الآن من هذا المكان الملعون؟».

قال الأمير: «نعم، نعم، استدعِ لنا عربة أجرة، بحقّ السماء. دعنا نعُد أدراجنا، لعلّ النوم يُنسيني عار هذه الليلة».

لكن من الجدير بالذكر أنه قد قرأ بعناية يافطة اسم الزقاق قبل مغادرته.

في صباح اليوم التالي، ما أن استيقظ الأمير من نومه، حتى أحضر له العقيد جيرالدين الصحيفة اليومية، واضعاً علامة على الفقرة التالية:

«حادث مؤسف. هذا السحَر في حوالي الساعة الثانية، بينما كان السيد بارثولوميو مالتوس، الذي يسكن في ١٦، شارع تشيبستو بليس، ويستبورن غروف، عائداً من حفلة في منزل أحد الأصدقاء، سقط من الشرفة العلوية في ميدان ترافلغار، مما أدّى إلى تهشم جمجمته وكسر ساقه وذراعه، ولقي حتفه فوراً. كان السيد مالتوس برفقة صديق له، منهمكاً في البحث عن عربة أجرة حينما وقع الحادث المؤسف. كان السيد مالتوس مشلولاً، لذا يُعتقد أن سقوطه ربما حدث بسبب نوبة أخرى. كان الراحل رجلاً معروفاً في الأوساط المحترمة، وإن موته سيتسبب بالحزن العميق للكثيرين».

قال جيرالدين بوجوم: «إذا كانت هنالك روح ستذهب إلى الجحيم مباشرة دون حساب، فهي روح هذا الرجل المشلول».

غطى الأمير وجهه بيديه، وظلّ صامتاً.

تابع العقيد: «أكاد أشعر بالبهجة لأنه مات. لكنّني أعترف أنني حزين على صاحبنا، الشاب صاحب الفطائر القشديّة».

قال الأمير، وهو يرفع رأسه: «جيرالدين، ذلك الفتى الشقيّ كان ليلة البارحة بريئاً، مثلي ومثلك، لكنه استيقظ هذا الصباح بروح تحمل خطيئة سفك دم إنسان. أشعر بالغثيان عندما أفكر في الرئيس. لا أعرف كيف سأفعل ذلك، ولكن أقسم بالربّ أنّي سأجعل ذلك الوغد يتوسل رحمتي. بئست تلكم اللعبة! يا لها من تجربة، يا له من درس!».

قال العقيد: «إنها لعبة لن نعيد تكرارها أبداً».

لكن الأمير لم يعلِّق بشيء، وظل صامتاً لفترة طويلة، مما جعل جيرالدين يشعر بالقلق.

قال: «أرى أنك تفكّر في العودة إلى هناك. أوَلم تُعانِ بما فيه الكفاية؟ أوَ لم تشهد من الرعب ما يكفيك؟ إن المسؤولية التي تقع عليك بسبب مركزك تمنعك من تعريض نفسك للخطر ثانية.«

أجاب الأمير فلوريزيل: «هناك جانب كبير من الصواب في ما تقوله يا جيرالدين. ولا أزعم أبداً أنني سعيد بعنادي. لكن، يا لحسرتي! وهل تحت رداء أعظم الملوك إلا رجل عادي؟ لم أشعر يوماً بضعف أشدّ من الآن، ليس الأمر بيدي. كيف يمكنني عدم الاكتراث بمصير الشاب التعيس الذي قاسمنا الطعام قبل بضع ساعات؟ كيف يمكنني ترك الرئيس يستمر في مهنته

الشنيعة دون حساب؟ كيف يمكنني البدء في مغامرة مثيرة مثل هذهِ، ولا أكملها حتى النهاية؟ كلا يا جيرالدين، أنت تطلب مني بصفتي أمير بوهيميا ما لا أستطيع كرجلٍ شريف القيام بهِ. هذه الليلة سننضم ثانية إلى طاولة قمار نادي الانتحار».

جثا العقيد جيرالدين.

صاح متوسلاً: «هلا أنهى سموّكم حياتي؟ إن حياتي ملكك لتفعل بها ما تشاء، ولكن لا! لا تطلب مني مساعدتك للقيام بهذه المخاطرة المميتة».

أجاب الأمير بشيء من التعالي: «أيها العقيد جيرالدين، حياتك ملكك وحدك. أنا أرغب بالطاعة المطلقة فقط، وحين تُقدّم لي كرهاً، لا أُريدها. لكنني سأقول لك كلمة أخيرة: إن إلحاحك في هذه القضية قد استنفد صبري».

وقف العقيد على قدميهِ في الحال.

قال: «سموّكم، هلا سمحتم لي بالمغادرة بعد ظهر هذا اليوم؟ فأنا لا أجرؤ كرجل شريف على المجازفة بحياتي ودخول ذلك المنزل المُميت ثانية حتى أرتب شؤون وصيّتي تماماً. وأعدك يا صاحب السمو أنك لن تلقى مجدداً أية معارضة من أكثر خدمك إخلاصاً وامتناناً».

قال الأمير فلوريزيل «عزيزي جيرالدين. أشعر بالأسف دائماً عندما تضطرني إلى تذكيرك بمركزي. اقضِ يومك على النحو الذي تراه مناسباً، ولكن يجب أن تكون هنا قبل الساعة الحادية عشرة مرتدياً نفس تنكّرك، كما البارحة».

هذه المرة كان عدد الحضور أقل من الليلة الماضية. وعندما وصل جيرالدين والأمير، لم يكن هناك أكثر من ستة أو سبعة أشخاص في غرفة التدخين. أخذ صاحب السمو الرئيس جانباً وهنأه بحرارة على مصرع السيد مالتوس.

قال له: «لطالما أسعدني لقاء الأشخاص الأكفّاء، وأنت بالتأكيد واحد منهم، بل وتملك الكثير من القدرات الاستثنائية. إن مهنتك ذات طبيعة غاية في الحسّاسية، ومع ذلك أرى أنك أكثر من مؤهلٍ بالقيام بها بنجاح وكتمان».

ابتهج الرئيس بهذا الإطراء القادم من شخصٍ ذي هيئة رفيعة المقام، مثل سمو الأمير، فشكره بكل تواضع على هذه المجاملة.

قال: «مالتي المسكين! لن يكون النادي هو إيّاه من دونه. أكثر زبائني من الشباب يا سيدي، والشباب الشاعريين، وهؤلاء ليسوا رفاقاً جيدين بالنسبة

لي. كان لدى مالتي شيء من الشاعرية أيضاً، لكنها كانت من النوع الذي يمكنني فهمه».

قال الأمير: «يمكنني أن أفهم سبب انسجامك مع السيد مالتوس. فقد رأيتُ فيهِ رجلاً ذا طبيعة فريدة للغاية».

كان الشاب صاحب الفطائر القشديّة في الغرفة، لكنه كان مكتئباً وصامتاً. وقد حاول رفيقاه الجديدان عبثاً إشراكه في الحديث.

صاح قائلاً: «أشعر بندم مرير لأنني أحضرتكما إلى هذا المكان اللعين! ارحلا، طالما لم تتلطخ أيديكما بالدماء. آه لو أنكما سمعتما صراخ الرجل العجوز وهو يسقط! وصوت عظامه وهي تتحطّم على الرصيف! لو كانت في قلبيكما أية شفقة على كائن ملعون مثلي، تمنّيا أن يكون الآس البستوني من نصيبي هذهِ الليلة!».

توافد المزيد من الأعضاء مع تقدّم المساء، ولكن في النهاية لم يجتمع حول الطاولة أكثر من دزينة الشيطان ([29]). شعر الأمير مرّة أخرى ببهجة معيّنة في خصّم مخاوفه، لكنّه دُهش برؤية جيرالدين وهو أكثر ثباتاً مقارنة بليلة البارحة.

فكّر الأمير بينه وبين نفسه «يا له من أمر استثنائي، كيف أن وصية، سواء مكتوبة أم غير مكتوبة، يمكن أن تؤثّر إلى هذا الحد بمعنويات شاب مثله».

قال الرئيس: «أيها السادة، انتباه!»، ثم بدأ في توزيع الورق.

وُزّعت أوراق اللعب ثلاث مرات حول الطاولة، ولم تخرج من يده ولا لمرّة الورقتان الموسومتان. بلغت الإثارة أقصى حدّ عندما بدأ بتوزيع الأوراق للمرّة الرابعة. ما تبقى من الأوراق كان يكفي لجولة كاملة أخيرة. جلس الأمير في المقعد الثاني على يسار الرئيس، وبالتالي سيتسلّم الورقة ما قبل الأخيرة، لأن الأوراق كانت توزع بشكل عكسي، بحسب العادة المتّبعة في النادي. قلب اللاعب الثالث على يمين الرئيس ورقته وكانت آساً أسود، آس السباتي. تلقى اللاعب التالي ورقة ديناري، وتلقى التالي ورقة قلب، وهكذا دواليك. لكن ورقة آس البستوني لم تظهر بعد. في النهاية، قلَب جيرالدين الجالس على يسار الأمير، ورقته، فكانت آساً، ولكنه آس القلوب.

أدرك الأمير فلوريزيل أن الورقة التي ستحدّد مصيره كانت على الطاولة أمامه، فتوقّف قلبه. لقد كان رجلاً شجاعاً، ومع ذلك تصبّب العرق على وجهه. كانت احتمالية أنه قد قضي عليه بالضبط خمسين بالمئة. قلَب ورقة اللعب وكانت آس البستوني. دوّى في رأسه هدير عالٍ وطفَت الطاولة أمام

عينيه. انتابت اللاعب على يمينه نوبة من الضحك الفظيع، تحمل بين طياتها شعوراً بالفرح وخيبة الأمل في نفس الوقت. وفي الحال نهض الجميع من الطاولة وتشتتوا بسرعة. لكن ذهنه كان منشغلاً بأفكار أخرى. لقد أدرك كم كان تصرّفه أحمق وإجرامياً. لقد كان في تمام صحته وريعان شبابه، وكان وريثاً للعرش، لكنّه ضيّع في القمار مستقبله ومستقبل بلد شجاع ومخلص. فصاح: «ربّاه! سامحني يا إلهي!». ثم تلاشى ارتباك حواسه واستعاد هدوءه في لحظة.

وكان مما فاجأه أن جيرالدين اختفى من المكان. لم يبقَ أحد في غرفة لعب الورق باستثناء قاتله المُنصَّب الذي كان يتهامس مع الرئيس والشاب ذي الفطائر القشدية. تقدّم الشاب نحو الأمير، وهمس في أذنه: «لو كان عندي مليون فسأعطيه مقابل حظّك».

وفيما كان الشاب يغادر لم يستطع سموّه إلا أن يفكّر أنه كان سيوافق على بيع حظّه بمبلغ أقل من ذلك بكثير.

انتهى الاجتماع المهموس. وغادر حامل آس السباتي الغرفة بنظرة ذكية، تدلّ على أنه كان يعرف بالضبط ما هي مهمته. ثم دنا الرئيس من الأمير سيّئ الحظ مادّاً يده له ليصافحه.

قال: «سعدتُ بلقائك يا سيدي. كان من دواعي سروري أن أقدّم لكَ هذه الخدمة. على أية حال، لا يمكنك أن تشتكي من التأخير. لقد وصل دورك في الليلة الثانية، يا لها من ضربة حظ!».

وعبثاً حاول الأمير أن يقول أي شيء للردّ، فقد كان فمه جافاً ولسانه مشولاً.

سأله الرئيس بشيء من التعاطف: «أتشعر بالغثيان؟ لا عليك، كل من كانوا في مكانك انتابهم مثل هذا الشعور. هل ترغب بشرب القليل من البراندي؟».

أومأ الأمير بالإيجاب. وعلى الفور صبّ الرجل المشروب في كأس.

قال الرئيس فيما أفرغ الأمير كأس الشراب في جوفه: «مسكين مالتي! لقد شرب ليلتها قرابة النصف لتر، ولم ينفعه الشراب في شيء».

قال الأمير بعد أن تحسّنت معنوياته إلى حدٍ كبير: «إنني أكثر تقبّلاً للعلاج. لقد تمالكت نفسي ثانية كما ترى. والآن دعني أسألك، ما هي توجيهاتي؟».

«عليك أن تمشي في الرصيف الأيسر من شارع ستراند في اتجاه المدينة، إلى أن تقابل الرجل الذي غادر الغرفة للتو. وستأخذ منه بقية التوجيهات. من فضلك أطعه في كل أوامره، لأن سلطة النادي منوطة به في هذهِ الليلة». ثم أضاف الرئيس في النهاية: «والآن، أتمنى لك نزهة سعيدة».

قابل فلوريزيل التحية بارتباك، ثم استأذن وغادر. مرّ عبر غرفة التدخين، حيث كان معظم اللاعبين لا يزالون يتجرعون الشمبانيا التي طلبها بنفسه ودفع ثمنها، وتفاجأ عندما وجد نفسه يلعنهم ويشتمهم في سريرته. اعتمر قبعته وأخرج معطفه من الخزانة وارتداه وأخذ مظلّته المركونة في إحدى زوايا الغرفة. إن نمطية هذهِ الأفعال الاعتيادية، وفكرة أنهِ سيقوم بها للمرة الأخيرة، جعلته ينفجر في نوبة ضحك بدت مزعجة حتى لأذنيهِ. تردّد للحظة في مغادرة المكتب، وتوجّه بدلاً من ذلك إلى النافذة. ثاب إلى نفسه عندما رأى مشهد القناديل والظلام المحيط بها في الشارع.

قال لنفسه: «هيا، هيا، يجب أن تكون رجلاً، يجب أن تذهب».

في زاوية زقاق بوكس كورت انقضّ ثلاثة رجال على الأمير فلوريزيل، واقتادوه بخشونة إلى داخل عربة انطلقت في الحال.

كان فيها راكب مسبقاً.

قال صوت مألوف للغاية: «هلا يغفر لي صاحب السمو اندفاعي؟».

ألقى الأمير نفسه على العقيد ليعانقه في غمرة فرحته بقدوم الفرج.

صاح: «كيف يمكنني أن أفيكَ شكراً؟ وكيف رتّبتَ لهذا الأمر؟».

ومع أن الأمير كان مستعداً للسير حثيثاً نحو هلاكه، إلا أنه شعر بسعادة غامرة للاستسلام إلى هذا العنف الودّي، والعودة مرة أخرى إلى الحياة والأمل.

أجاب العقيد: «يمكنك أن تشكرني بتجنيب نفسك مثل هذه الأخطار في المستقبل. أما بالنسبة لسؤالك الثاني، فقد تمّت معالجة الأمور بأبسط الوسائل. لقد رتّبت بعد ظهر هذا اليوم مع مخبر سرّي شهير تعهّد بالسرية التامة. وقد دفعتُ له بسخاء مقابلها. وقد شارك خَدمُك بشكل أساسي في تنفيذ هذه العملية. ما أن حلّ الظلام، حتى طُوّق المنزل في زقاق بوكس كورت، وهذه العربة، هي إحدى عرباتك، وقد كانت في انتظارك منذ ما يقارب الساعة».

سأل الأمير: «وماذا عن المخلوق البائس الذي كان سيقتلني؟».

أجاب العقيد: «لقد ألقي القبض عليه ما أن غادر النادي، وهو الآن قابع في قصر سموّكم ينتظر حكمكم عليه، حيث سينضم إليه قريباً شركاؤه».

قال الأمير: «جيرالدين، لقد أنقذتني مخالِفاً أوامري الواضحة، وحسناً فعلت. أنا مدين لك ليس فقط بحياتي، بل بالدرس الذي تعلّمته، ولن أكون جديراً بلقبي كأمير بوهيميا، إذا لم أشكر معلمي. وسأدعُ لك اختيار الطريقة التي أكافئ بها صنيعك».

ساد الصمت، فيما واصلت العربة سيرها الحثيث في الشوارع، بينما غرق الرجلان كلّاً في أفكاره.

كسر العقيد جيرالدين الصمت الطويل قائلاً: «يا صاحب السمو، لديك في هذا الوقت مجموعة كبيرة من المُدانين. وهناك مجرم واحد على الأقل من بينهم يجب أن يخضع للعدالة. لكن القسَم الذي ألزمنا بهِ نفسينا، يمنعُنا من اللجوء إلى القانون. ولكن حتى لو وجدنا طريقة لخرقه، فهنالك اعتبارات أخرى، متعلّقة بمركزك، توجب علينا الالتزام بالسرية التامة، فهل لي سؤال سموّكم ماذا أنتم مزمعون على فعله؟».

أجاب فلوريزيل: «لقد اتّخذت قراري. يجب أن يُهزم الرئيس في مبارزة. يبقى فقط أمر اختيار خصمه».

قال العقيد: «سموّكم، لقد سمحتم لي باختيار مكافأتي. فهل تأذنون لي أن أطلب منكم تنصيب أخي؟ أنا مدرك أن هذه مهمة مشرّفة وجسيمة، ولكن هلا تجرأتُ وطمأنتُ سموّكم بأن الفتى أهل للقيام بها بشرف».

قال الأمير: «أنت تطلب مني معروفاً تكره نفسي أن تلبيه، ولكن يجب ألا أرفض لك أي طلب».

قَبّل العقيد يد الأمير بمودّة عظيمة. وفي تلك اللحظة، دلفت العربة إلى المجاز المقنطر المؤدي إلى قصر الأمير البهيّ.

لم تمضِ إلا ساعة واحدة، حين استقبل فلوريزيل في رداءه الرسمي المغطى بشارات ونياشين بوهيميا، أعضاء نادي الانتحار.

قال: «أيها الرجال الحمقى والأشرار، كل من تورط منكم في هذا المأزق، بسبب الفقر، سيحصل على عمل وأجر مناسبين. ومن كان يعذبه ضميره فعليه أن يلجأ إلى الرب، الحاكم العادل والرحيم. إنني أشفقُ عليكم جميعاً، أكثر مما تتخيلون، غداً ستخبرونني بقصصكم، وكلّما كنتم صادقين معي سيسهل علي مساعدتكم وإصلاح حظوظكم المتعثرة».

ثم التفت إلى الرئيس وقال له: «أما أنت، إن مساعدتي لشخص بمثل مواهبك ستكون بمثابة إساءة. لذا، وبدلاً من ذلك، سأقترح عليك نوعاً من أنواع التسلية». ثم وضع يده على كتف الشقيق الأصغر للعقيد جيرالدين قائلاً: «هذا أحد ضباطي، وهو يرغب في القيام بجولة في أوربا، وأطلب منك، كمعروف، أن ترافقه في هذه الجولة». ثم سأله وقد تغيّرت نبرته فجأة: «هل تجيد التصويب بالمسدس؟ قد تحتاج إلى هذه المهارة. فعندما يترافق رجلان في السفر، من الأفضل أن يكون المرء مستعداً لكل الاحتمالات. ودعني أُضِف أنك إذا ضيّعت لأي سببٍ رفقة السيد جيرالدين الشاب طوال طريق سفركما، فسيكون هناك دائماً فرد آخر من أتباعي حاضراً في الحال ومتأهباً وتحت تصرفك. ويجب أن أذكّرك، أيها السيد الرئيس، أنني معروفٌ بامتلاكي رؤية بعيدة المدى كذراعي».

بهذه الكلمات التي قيلت بنبرة شديدة الصرامة والحزم، اختتم الأمير حديثه. في صباح اليوم التالي، وبفضل سخاء الأمير قُدّم الدعم المالي المناسب لأعضاء النادي، وشرع الرئيس في رحلاته، تحت إشراف السيد جيرالدين الشاب، واثنين من أتباع الأمير المخلصين والبارعين المدرّبين تدريباً جيداً. ولم يكتفِ الأمير فلوريزيل بهذا القدر، فأمر بوضع عملاء سرّيين في محيط المنزل في بوكس كورت، وأمرهم أن يحيلوا إليه كل الرسائل المُرسلة إلى العنوان، وكذلك جميع زوار نادي الانتحار أو موظفيه، وهو من سيتولى التحقيق في هذه القضية شخصياً.

إلى هنا -يقول راويتنا العربي- تنتهي حكاية الشاب صاحب الفطائر القشديّة، الذي أصبح الآن ربّ أسرة محترم يعيش في شارع ويغمور، كافينديش سكوير. أما رقم منزله، فسأتحفظ عليه لأسباب جليّة. وكل من يرغب بمتابعة مغامرات الأمير فلوريزيل ورئيس نادي الانتحار، يمكنه أن يقرأ (حكاية الطبيب وصندوق ساراتوغا).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

حكاية الطبيب وصندوق ساراتوغا (30)

كان السيد سايلوس ك. سكودامور شاباً أمريكياً ذا طبع بسيط ومسالم، وهو ما يُحسب له، وهو القادم من نيو إنغلاند، ذلك الجانب من العالم الجديد الذي لا يشتهر بهذه الصفات. ومع أنه كان ثرياً للغاية، إلّا أنه كان معتاداً على تسجيل كل نفقاته في دفتر جيبٍ صغير، واختار التمتّع بمباهج باريس من الطابق السابع لما يُدعى بفندق مفروش في الحي اللاتيني. كان البخل أشبه بعادة عنده، أما سلوكه العفيف والفضيل، الذي ميّزه بين معارفه، فقد كان بسبب حيائه وحداثة سنه.

شغلت الغرفة المجاورة لغرفته سيدة فاتنة للغاية، أنيقة جداً في زينتها وملبسها. لذا ظنّ في البداية أنها كونتيسة. ولكن بمرور الوقت عرف أنها تُدعى مدام زيفرين، وأيّاً كانت مكانتها في المجتمع، فلم تكن تحمل لقباً نبيلاً. اعتادت مدام زيفرين، على أمل أن تسحر الشاب الأمريكي، على التغنّج عندما تصادفه على السلالم، مُلقية بضع كلمات بالطبع، مع نظرة قاتلة من عينيها السوداوين، ثم تختفي في حفيف فستانها الحريري وهي كاشفة عن عمدٍ عن قدمٍ وكاحلٍ بديعين. ولكن كل مبادراتها لم تنفع في تشجّيع السيد سكودامو على التقرّب منها، بل أغرقته في أعماق الكآبة والخجل. حتى أنها أقبلت عليه عدّة مرات بحجة الحصول على ولاعة، أو بذريعة الاعتذار عن السلوك العبثي المزعوم لكلبها البودل، لكن فمه كان ينطبق في حضور هذه المخلوقة الفاتنة، وينسى في الحال كل ما يعرفه من اللغة الفرنسية، ولا يفعل شيئاً سوى التحديق والتلعثم إلى أن تذهب. ومع ذلك، عندما يكون في محيط آمن وبرفقة بعض الرجال، فأنه لم يمتنع بالرغم من التواصل الشحيح بينهما، من إلقاء بضعة تلميحات عرضية عن وجود علاقة مذهلة للغاية تجمعه بها، وهذا أبعد ما يكون عن الحقيقة.

أما الغرفة التي كانت على الجانب المُقابل من غرفة الأمريكي -كانت هنالك ثلاث غرف في كل طابق في الفندق- فقد استأجرها طبيب إنجليزيّ عجوز، ذو سمعة مشكوك فيها إلى حد ما، اسمه الدكتور نويل، قيل إنه أجبر على مغادرة لندن، حيث كان يملك عيادة كبيرة وناجحة. وسرت إشاعة أن الشرطة كانت خلف هذا التغيير في المشهد. أياً تكن الحقيقة، لكن يبدو أن هذا الرجل كان يحظى بمكانة مرموقة في حياته السابقة، وهو اليوم يسكن في الحيّ اللاتيني ببساطة شديدة وعزلة كبيرة، مكرّساً معظم وقته للدراسة. تعرّف عليه السيد سكودامور، وأصبحا رفيقين، واعتاد الثنائي بين

الحين والآخر على الخروج وتناول وجبة طعام متواضعة في مطعم في الشارع المقابل للفندق.

كان لدى سايلوس ك. سكودامور الكثير من العيوب الصغيرة ومن النوع غير الخطير، ولم يكن التهذيب ليمنعه من ممارستها بالعديد من الطرق المشبوهة. كان الفضول واحداً من أكبر نقاط ضعفه. كان نمّاماً بالفطرة، وكانت الحياة، لا سيما جوانبها التي لم يختبرها، تثير اهتمامه لدرجة التولّع. كان سؤولاً وقحاً لا يُقهر، يطرح استفساراته بنفس القدر من الإلحاح والرعونة. وعندما يطلب منه أحدهم أن يأخذ رسالة ليودعها في البريد، كان يمكن رؤيته وهو يزنها في راحة يده، ويقلّبها مراراً وتكراراً، ويراجع العنوان بعناية. لذا عندما عثر على خرقٍ في الجدار الفاصل بين غرفته وغرفة مدام زيفرين، قام بتوسيعه بدلاً من أن يسدّه، واستخدمه للتلصّص على جارته.

وكلّما حاول أن يشبع فضوله كان يزداد فضولاً. وفي أحد الأيام، مع نهاية شهر مارس، قام بتوسيع الفتحة أكثر، لكي يتمكن من رؤية زاوية أخرى من غرفة جارته. في ذلك المساء، عندما شرع كالمعتاد بتفقّد حركات مدام زيفرين، دُهش عندما وجدَ أن الفتحة مسدودة بعائق يحجب الرؤية على الجانب الآخر. لكنه ازداد دهشة وخجلاً عندما أُزيل العائق فجأة وتناهى إلى أذنيه صوت ضحكة مكبوتة. من الواضح أن بعض الجصّ قد وقع على الجانب الآخر من الحائط وأفشى سرّ فتحته للتلصّص، فقامت جارته بردّ المجاملة بالمثل. انتاب السيد سكودامور شعورٌ حادٌ جداً بالضيق. أدان مدام زيفرين بلا رحمة، حتى أنه لامَ نفسه. ولكن عندما اكتشف في اليوم التالي، أنها لم تقُم بأي إجراء لمنعه من تسليته المفضلة، واصل الاستفادة من إهمالها واستمرّ بإشباع فضوله الفارغ.

في اليوم التالي، تلقّت مدام زيفرين زيارة طويلة من رجل طويل القامة نحيل البُنية بمشية متثنّية في الخمسين من عمره أو أكبر، لم يكن سايلوس قد رآه قبل الآن. لكنّه عرف أنه بريطاني من بدلته التويدية وقميصه الملون والسالفين الأشعثين، وقد بثّت عيناه الرماديتان الجامدتان في سايلوس شعوراً بالقشعريرة. ظلّ يزمّ شفتيه ويديرهما من جانب لآخر ومرة تلو الأخرى طوال حديثهما الذي كان يدور همساً. بدا الأمر للشاب النيو إنغلاندي كما لو أنهما كانا يومئان إلى غرفته أكثر من مرة، ولكن الشيء الوحيد المؤكّد الذي فهمه من خلال الانتباه الشديد هو هذا التعليق الذي أدلى به الرجل الإنجليزيّ بصوتٍ عالٍ بعض الشيء، كما لو أنه كان رداً على بعض التردّد أو المعارضة:

«لقد درستُ ذوقه جيداً، وأقول لك مراراً وتكراراً إنني لن أجد امرأة أخرى أكثر ملائمة منكِ».

ردّاً على هذا، تنهدت مدام زيفرين، وأبدت إيماءة تعني الاستسلام، مثل شخص خاضع لسلطة مطلقة.

بعد ظهر ذلك اليوم، حُجِبت فتحة التلصّص أخيراً، بعد أن وُضِعَت خزانة ملابس أمامها على الجانب الآخر. وبينما كان سايلوس يندب سوء حظه الذي عزاهُ إلى اقتراح خبيثٍ من قبل البريطاني، أحضر البوّاب إليه رسالة مكتوبة بخطٍّ أنثوي، باللغة الفرنسية دون التزامٍ صارمٍ بقواعد الإملاء الصحيحة، ولا تحمل أي توقيع. كانت الرسالة عبارة عن دعوة للشاب الأمريكي، مكتوبة بأكثر العبارات تشجيعاً وصراحة، للحضور إلى جزء معين من قاعة رقص بولبير بول ([31]) في الساعة الحادية عشرة من تلك الليلة للقاء صاحبة الرسالة. وقد خاض في داخله معركة طويلة بين فضول وتردّد، فأحياناً كان كلّه فضيلة وعفّة، وأحياناً كلّه حماسة وجرأة. في النهاية، وقبل العاشرة بوقت طويل، وصل السيد سايلوس ك. سكودامور مرتدياً حلّة فاخرة لا تشوبها شائبة إلى باب قاعة بولبير بول، ودفع رسم الدخول فيما يراوده شعور بتهوّرٍ شيطاني لم يكن يخلو من السحر.

كان موسم الكرنفالات، وكانت القاعة مكتظّة وصاخبة للغاية. في البداية، شعر مغامرنا الشابّ بالخجل من الأضواء والحشد، ولكن بعد ذلك، تصاعد إلى دماغه شيء من الثمالة، التي جعلته يتمتّع بأكثر من نصيبه من الرجولة. لقد شعر بأنه مستعدّ لمواجهة الشيطان، وتبختر في قاعة الرقص بخيلاء فارس. وبينما كان يتجول بين الحشود، رأى مدام زيفرين ورفيقها البريطاني في خضّم حوارٍ خلف عمود. وفي الحال تغلّب عليه طبعه في التلصّص، وراح يتسلل أقرب وأقرب من خلف الاثنين بخفة قِط، حتى بات في مرمى السمع منهما.

قال البريطاني: «هذا هو الرجل، هناك، ذو الشعر الأشقر الطويل، الذي يتحدّث إلى فتاة ترتدي فستاناً أخضر».

تطلّع سايلوس إلى حيث أشار البريطاني، ورأى شاباً وسيماً للغاية بقامة صغيرة، كان من الواضح أنه هدف هذه المحادثة.

قالت المدام زيفرين: «حسناً، سأبذل قصارى جهدي. ولكن تذكّر، أن حتى أفضلنا قد تفشل في مثل هذه المسألة».

ردّ رفيقها مُستهجناً: «صهٍ! أنا المسؤول عن النتيجة. ألم أختركِ من بين ثلاثين امرأة؟ اذهبي، لكن كوني حذرة من الأمير. لا أفهم أية صدفة لعينة

جاءت بهِ هذه الليلة. وكأنه ليس في باريس العشرات من قاعات الرقص الأخرى الجديرة باهتمامه أكثر من هذهِ المليئة بصخب الطلاب والباعة! انظري إليه كيف يجلس، إنه أشبه بإمبراطور في عرشه من أمير في عطلته.«!

كان سايلوس محظوظاً مرة أخرى. فقد رأى شخصاً ممتلئ القوام إلى حدّ ما، وسيماً بشكل لافت، وسلوكه مهيب ومهذّب للغاية، كان جالساً إلى طاولة مع شابّ وسيم آخر، يصغره بعدة سنوات، يخاطبه باحترام واضح. كان وقع كلمة «الأمير» مستحباً إلى سايلوس ذي الميول الجمهورية، وكان لهيئة الشخص حامل لقب الأمير تأثيرها المعتاد الساحر في نفس سايلوس. فترك مدام زيفرين والرجل الإنجليزيّ لشأنهما، وشقّ طريقه عبر الجموع، مُقترباً من الطاولة التي كرّمها الأمير وصديقه المخلّص بانتقائهم إيّاها.

قال الأمير في تلك اللحظة: «اسمع يا جيرالدين إن هذا التصرف هو الجنون بعينه. أنت من اختار -وأذكّرك- أخاك لهذه المهمة المحفوفة بالمخاطر، والواجب يلزمك بمراقبة سلوكه. لقد اختار المكوث لعدة أيام في باريس، وهذه بحد ذاتها حماقة، بالنظر إلى شخصية الرجل الذي عليه التعامل معه. والآن، قبل يومين من المغادرة، وليس أمامه إلا يومين أو ثلاثة أيام من الساعة الحاسمة، أسألك، هل هذا هو المكان المناسب له لقضاء وقته؟ كان يتوجّب عليه أن يكون في الميدان يتدرب، وأن ينام لساعات طويلة ويمارس تمارين معتدلة مشياً على الأقدام، وأن يتبع حمية صارمة دون نبيذ أبيض أو براندي، هل يتصور هذا التافه أنها تمثيلية كوميدية؟ هذا الأمر في غاية الجدية، إنها مسألة حياة أو موت يا جيرالدين».

أجاب العقيد جيرالدين: «أنا أعرف الشاب حق المعرفة بحيث لا أتدخل في أموره. وأعرفه بالقدر الكافي بحيث لا أشعر بالقلق منه. إنه أكثر حذراً ممّا تتخيل، وروحه ثابتة لا تُقهر. لو كان الأمر متعلقاً بامرأة، فلربما لن أكون واثقاً منه، ولكن يمكنني أن آمن على الرئيس معه ومع المرافقَين دون لحظة تردّد».

أجاب الأمير: «يسرني سماعك تقول ذلك، ولكني لستُ مطمئناً. هذان المرافقان جاسوسان مدرّبان تدريباً جيداً، ومع ذلك فقد سبق لهذا الوغد أن نجح ثلاث مرات في التملص من مراقبتهما له، وقضى عدة ساعات في شؤونه الخاصة، وهي على الأرجح شؤون خطرة، أليس الأمر كذلك؟ قد يضيّع أثره شخص قليل الخبرة بطريق الخطأ، ولكن إذا تمكّن من التملّص من رودولف وجيروم، فلا بد أن ذلك متعمّد، ولا بدّ أن لديه دافعاً قويّاً لفعل ذلك، ناهيك عن قدراته الاستثنائية».

أجاب جيرالدين بنبرة تحمل القليل من الاستياء: «أعتقد أن المسألة الآن بيني وبين أخي».

أجاب الأمير فلوريزيل: «وأنا أتفق معك تماماً، يا حضرة العقيد جيرالدين. ولكن ربما لهذا السبب بالذات، يجب أن تكون أكثر استعداداً لقبول نصائحي. عموماً يكفي حديثاً عن هذا الشأن. انظر إلى تلك الفتاة ذات الفستان الأصفر كيف تُحسن الرقص».

ثم تغيّرت وجهة الحديث إلى الموضوعات العادية التي تنشغل بها في العادة قاعات الرقص الباريسية في أيام الكرنفالات.

تذكّر سايلوس أين كان، وانتبه إلى الوقت وهو يقترب من الموعد المحدّد، وكان يجب أن يكون في مكان اللقاء. كان كلما أمعن التفكير، قلّ إعجابه بما ينتظره. وفي تلك اللحظة اندفعت دوّامة من الحشد في اتجاه الباب، وسمح لها أن تحمله معها دون مقاومة. وحصرته الدوّامة في زاوية تحت الشرفة، وفي الحال طرق سمعه صوت مدام زيفرين. كانت تتحدث بالفرنسية مع الشاب ذي الشعر الأشقر الذي أشار إليه الإنجليزي الغريب قبل أقل من نصف ساعة.

قالت: «إن سُمعتي على المحكّ. وإلا فأنني لن أفكر بأي شيء آخر سوى ما يهواه قلبي. ليس عليك إلا أن تقول للبوّاب ما أخبرتُك بهِ، وسيسمح لك بالمرور دون أن يعترض ولو بكلمة».

اعترض رفيقُها قائلاً: «ولكن لماذا هذا الحديث عن الديون؟».

قالت: «يا إلهي! وهل تعتقد أنني لا أفهم كيف يُدار الفندق الذي أُقيم فيهِ؟».

ثم ذهبت متشبثة بذراع رفيقها بِوُدّ.

تذكّر سايلوس الرسالة.

قال بينه وبين نفسه: «من يعلم، ربما قد أرافق بعد عشر دقائق من الآن، امرأة جميلة مثلها، وقد تكون أكثر أناقة حتى، ربما سيدة مجتمع حقيقية، أو قد تكون ذات لقب نبيل».

ثم تذّكر الإملاء السيّئ في الرسالة وانتابه الحزن بعض الشيء.

ولكن بعد إعادة التفكير تخيّل بينه وبين نفسه قائلاً: «ولكن ربما تكون من كتبَتها هي خادمتها».

بضع دقائق فقط ويحين الموعد، وهذا الدنوّ المتعجّل، جعل قلبه ينبض بسرعة غريبة وبغيضة إلى حدّ ما. لكنه شعر بالارتياح عندما فكّر أنه ليس مُلزماً بأي حال من الأحوال بالحضور إلى الموعد. امتلأ بالفضيلة والجبن بنفس القدر، وتوجّه إلى الباب مرة أخرى، لكن هذه المرة من تلقاء نفسه، وشقّ طريقه ضد تيّار الناس الذين راحوا يتحركون الآن في اتجاه معاكس. ربما كان مُرهقاً من زجّ نفسه بين الحشد والسير بعكس اتجاههم، أو ربما كان في ذلك النوع من المزاج الذي يجعل من مجرّد المضيّ في نفس القرار لبضع دقائق ينتهي بردّ فعل وهدف مختلفين. أياً يكن السبب، لكنه بالتأكيد، دار لثلاث مرات حول المكان، ولم يتوقّف حتى وجد مكاناً للاختباء على بُعد بضع ياردات من المكان المحدّد للّقاء.

وهنا بدأ يعاني من عذاب روحيّ جعله يصلّي للربّ عدّة مرات طلباً للمساعدة، لأن سايلوس كان متديّناً بطبعهِ. لقد فقدَ الآن كلّ رغبة في هذا اللقاء، ولم يمنعه شيء من الهروب إلّا خوفه السخيف من أن يوصم بالجبن وانعدام الرجولة. ولكن هذا الشعور كان قوياً لدرجة أنه تغلّب على كل المشاعر الأخرى، ورغم أن الشعور لم يكن قوياً بما يكفي لأن يجعله يتقدّم، إلّا أنه بالتأكيد قد منعه من الهرب. أخيراً، مرّت عشر دقائق على الموعد المحدّد. ارتفعت معنويات سكودامور الشاب، واختلس نظرة من خلف الزاوية فلم يرَ أحداً في مكان اللقاء، لا شكّ في أن مراسلته المجهولة قد سئمت الانتظار وغادرت المكان. حينها زال كل خوفه وتردّده وامتلأ بالشجاعة. فقد فكّر أنه طالما حضر إلى الموعد، حتى لو كان متأخراً، فسيكون بريئاً من تهمة الجبن. والآن بدأ يشكّ بوجود خدعة، بل أنه أثنى على نفسه لفطنته التي جعلته يكتشف هذه الخدعة، ولأنه تفوّق على المتآمرين عليه. ولكن، يا لفراغ العقل في سنّ الشباب!

مسلّحاً بهذه الأفكار، تقدم بجرأة من زاويته، لكنه لم يكَد يخطو بضع خطوات حتى شعر بيدٍ توضع على ذراعه. استدار فرأى سيدة ضخمة للغاية، ذات ملامح مهيبة إلى حدٍ ما، ولكنها لا تحمل أية علامة على الشِدّة في مظهرها.

قالت: «أرى أنك مُغوي نساء واثق من نفسه للغاية، بحيث تجعلني أنتظر حضورك. ولكني عزمتُ على لقائك. إن المرأة عندما تنسى نفسها بحيث تكون هي التي تبادر بالخطوة الأولى، فهذا يعني أنها تركت وراءها كل اعتبارات الكبرياء التافهة، ومنذ فترة طويلة».

كان سايلوس منبهراً بحجم مُراسِلَته الفاتنة، ومفاجأتها له. لكنها سرعان ما جعلته يشعر بالراحة لوجوده معها. فقد كانت متسامحة جداً ولطيفة

المعشر، فاستدرجته لتقديم الدعابات، وضحكت معه. لذا، بعد وقت قصير جداً انقضى بين المجاملات وشرب البراندي الدافئ، لم تتمكّن من جعله يتخيل نفسه واقعاً في حبّها فحسب، بل وعلى التصريح بعاطفته نحوها بقدر أكبر من الاتّقاد.

قالت: «يا للحسرة! على الرغم من سعادتي بكلماتك، ولكن لا أدري ما إذا كان يجب عليّ أن لا أحزن على هذه اللحظة. لقد كنت أتعذّب وحدي، أما الآن، أيها الصبي المسكين، فسنتعذب كلانا. أنا لستُ سيدة حرّة. ولا أجرؤ على أن أطلب منك زيارتي في منزلي، لأن العيون الغيورة تراقبني». ثم سكتت هنيهة وأضافت: «أنا أكبر منك سنّاً، وفي نفس الوقت أضعف كثيراً، ورغم أنني أثق في شجاعتك وتصميمك، ولكن يجب أن أستغل خبرتي في هذا العالم من أجل مصلحتنا المتبادلة. أخبرني أين تسكن؟.«

أخبرها أنه يقيم في فندق مفروش، وذكر لها اسم الشارع والرقم.

فتأمّلت لبضعة دقائق وبدت وكأنها تُمعن التفكير.

وأخيراً قالت: «حسناً. ستكون مخلصاً ومطيعاً، أليس كذلك؟».

أكّد لها سايلوس بكلّ حماس ولاءه المطلق.

فقالت بابتسامة مشجّعة: «إذن، موعدنا ليلة الغد. يجب أن تبقى في غرفتك في الفندق طوال المساء، وإذا رغب أي صديق في زيارتك، فتخلّص منه في الحال متحجّجاً بأية ذريعة تخطر على بالك في وقتها». ثم سألته: «أحسب أن باب الفندق تُقفل في العاشرة؟».

أجاب سايلوس: «بل الحادية عشرة».

تابعت السيدة: «إذن غادِر الفندق في الساعة الحادية عشرة والربع. نادِ ببساطة على البوّاب لكي يفتح لك الباب، واحرص على أن لا تدخل معه في أي حديث، لأن ذلك من شأنه أن يفسد كل مخططاتنا. اذهب مباشرة إلى ركن حدائق لوكسمبورغ والبوليفارد، وهناك ستجدني في انتظارك. أنا على ثقة أنك ستتبع توجيهاتي بحذافيرها، وتذكر أنك إذا أهملت ولو حتى تفصيلة واحدة فقط، فإنك ستجلب عواقب وخيمة على امرأة ذنبها الوحيد هو أنها رأتك وأحبّتك من أول نظرة».

قال سايلوس: «لا يمكنني أن أفهم السبب وراء كل هذه التعليمات والاحتياطات».

صاحت وهي تنقر ذراعه بمروحتها اليدوية بدلال قائلة: «أعتقد أنك قد بدأت في معاملتي على أنّك السيّد. اصبر، اصبر! ستفعل ذلك في الوقت المناسب. تحبّ المرأة أن تُطاع في البداية، رغم أنها في ما بعد تجد سعادتها بالطاعة. افعل ما أطلبه منك، بحقّ السماء، وإلا فأنني لن أكون مسؤولة عن أي شيء». ثم أضافت بطريقة من أبصر للتوّ معضلة أكبر: «ولكن بعد إعادة التفكير، لقد وجدتُ خطة أفضل لإبعاد الزوّار الطارئين وغير المرغوب بهم. أخبر البواب أن لا يسمح لأي أحد بالدخول إليك، باستثناء الشخص الذي قد يأتي في تلك الليلة للمطالبة بدينٍ، وتظاهر بالخوف وأنت تتحدّث معه، كما لو أنك تخشى مقابلة هذا الشخص، حتى يتسنّى له أخذ كلماتك على محمل الجدّ».

فأجاب بشيء من الحنق: «أعتقد أنه يمكنك الوثوق بقدرتي على حماية نفسي من المتطفّلين».

أجابت ببرود: «أتمنّى أن تنفّذ ما أقوله بالضبط. فأنا أعرفكم أيها الرجال، أنتم لا تفكرون أبداً في سمعة امرأة».

احمر سايلوس خجلاً وطأطأ برأسه، لأن المخطّط الذي كان يتطلّع إليه كان ينطوي على القليل من المجد الباطل الذي يمكنه التباهي بهِ أمام معارفه من الرجال.

أضافت قائلة: «أهمّ شيء هو أن لا تتحدث إلى البوّاب عندما تخرج».

قال: «وما هو السبب؟ من بين جميع تعليماتك، يبدو لي هذا أقلّها أهمية».

أجابت: «لقد شكّكت في البداية في حكمة توجيهاتي الأخرى، وقد صرت ترى الآن أنها ضرورية للغاية. لذا صدّقني، أن لهذا الأمر ضرورة أيضاً، وستدركها في الوقت المناسب. ترى ماذا عساي أظنّ في حبك، إذا رفضت أن تُلبّي طلباتي التافهة في أوّل مقابلة لنا؟».

وجد سايلوس نفسه مرتبكاً وهو يقدّم التفسيرات والاعتذارات. وفيما هو على ذلك، نظرت السيدة إلى الساعة في الأعلى، وصفقت يداً بِيد، مُطلِقة صرخة مكبوتة.

صاحت قائلة «يا إلهي! هل تأخر الوقت إلى هذا الحدّ؟ ليست أمامي ولا حتى لحظة. يا لحسرتي علينا نحن النساء، يا لنا من مسكينات، يا لنا من إماء! ليست لديكَ أية فكرة عن المخاطر التي تكبّدتُها من أجلك!».

وبعد أن كرّرت تعليماتها وهي تدمج ببراعة الكلام مع المداعبات اللطيفة والنظرات المسترسلة، ودّعته واختفت فِي حشد الناس المحتفلين.

كان سايلوس طوال اليوم التالي ممتلئاً بشعورٍ من الأهمّية العظيمة، فقد بات الآن متأكّداً من أنها كانت كونتيسة. وعندما حلّ المساء، نفّذ أوامرها بدقّة وتوجّه إلى ركن حدائق لوكسمبورغ في الموعد المحدد. لم يكن من أحد هناك. انتظر قرابة النصف ساعة، مُستطلعاً وجوه المارّة والمتسكّعين بالقرب من المكان. حتى أنه تمشّى إلى الأركان الأخرى المجاورة واستدار حول سور الحديقة، ولكن الكونتيسة الجميلة لم تكن هناك لترمي نفسها بين ذراعيه. في النهاية، عاد إلى الفندق على مضض من نفس الطريق الذي أتى منه، وفيما هو يمشي تذكّر فجأة الحديث الذي سمعه يدور بين مدام زيفرين والشاب ذي الشعر الأشقر، فشعر بقلق غامض.

فكّر: «يبدو أن الجميع يكذبون على البواب».

قرع جرس الفندق، وفُتِح الباب، وجاء البواب بملابس النوم، حاملاً قنديلاً ليضيء له الطريق.

قال البواب: «هل غادر؟».

فأجاب سايلوس بشيء من الحِدّة، لأنه كان منزعجاً من خيبة أمله: «غادر؟ من تقصد؟».

تابع البواب: «لم أرَه وهو يخرج. ولكن سأفترض أنّك دفعت له. لأننا في هذا الفندق لا نرغب بأن يكون عندنا نزلاء لا يستطيعون الوفاء بالتزاماتهم وتسديد ديونهم».

سأل سايلوس بفظاظة: «ماذا تقصد بحق الشيطان؟ لا يمكنني فهم كلمة واحدة من هذا اللغو».

أجاب البواب: «الشاب الأشقر القصير، الذي جاء يطالب بدينه. أنا أعنيه. ومن قد يكون غيره، ألم تصدر أوامرك بعدم إدخال أي شخص آخر سوى الشخص الذي سيأتي مطالباً بدينه؟».

ردّ سايلوس: «يا إلهي، بالتأكيد لم يأتِ».

ردّ البواب: «أنا أصدق ما تراه عيناي فقط». ثم دفع باطن خده بلسانه في حركة مكرٍ.

صاح سايلوس: «أيها الوغد الوقح!». شعر بأنه قدّم عرضاً مثيراً للسخرية من الحِدّة والضيق، وفي الوقت نفسه حيّرته عشرات التحذيرات، فاستدار وهرع إلى سلالم الطوابق العليا.

صاح البواب: «أما زلت تريد الضوء؟».

لكن سايلوس تابع الركض أسرع وأسرع، ولم يتوقف حتى وصل إلى الطابق السابع ووقف أمام بابه. هناك توقف لحظة لالتقاط أنفاسه، وعندها هاجمته التصوّرات المرعبة وارتعد خوفاً من دخول الغرفة.

في النهاية استجمع شجاعته ودخل الغرفة، وشعر بالارتياح عندما وجدها مظلمة، وليس فيها أية علامة على وجود أي أحد فيها. فأخذ نفساً طويلاً. ها هو ذا في غرفتهِ مرة أخرى في أمان. وفكّر أن هذه يجب أن تكون حماقته الأخيرة، مثلما هي بكل تأكيد أولى حماقاته. كانت هناك أعواد ثقاب على طاولة صغيرة بجانب السرير، فبدأ يتلمس طريقه في الظلام باتجاهها. بينما كان يتحرك، عاوده الخوف مرة أخرى عندما اصطدمت قدمه بعائقٍ، لكنّه سُعد عندما وجد أنه لم يكن سوى كرسيّ. وفي النهاية لمس الستائر. من مكان النافذة، التي كانت بالكاد مرئية، علِم أنه كان واقفاً عند حافة السرير، لذا لم يكن عليه إلا أن يتحسّس طريقه حتى يصل إلى الطاولة المقصودة. فأخفض يده، لكن ما لمسه لم يكن مجرد لحاف سرير، كان اللحاف وتحته شيء يبدو باللمس مثل ساق بشرية. سحب سايلوس ذراعه بسرعة وتسمّر في مكانه.

فكّر: «ما هذا.. ما معنى هذا؟».

أنصت باهتمام، ولكنه لم يسمع أي صوت تنفّس. مرة أخرى، وبجهد كبير، مدّ يده إلى أن لامس طرف إصبعه المكان الذي سبق أن لمسه، لكنه هذه المرة وثب إلى الخلف نصف ياردة، وانتصب مرتجفاً متسمراً من الرعب. كان هناك شيء في فراشه. لم يعرف ما هو هذا الشيء، ولكن هناك بالتأكيد شيء ما.

مرّت بضع ثوانٍ قبل أن يتمكن من التحرّك. بعد ذلك، مسترشداً بغريزته ليستدل على طريقه، وضع يده مباشرة على أعواد الثقاب. كان مستديراً بظهره إلى السرير عندما أشعل شمعة. وبمجرد أن اشتعل لهب الشمعة، استدار ببطء يبحث عما كان يخشى رؤيته. لقد تحققت أسوأ مخاوفه. كان الشرشف مسحوباً بعناية فوق المخدة، لكنه رسم قالب جسم بشري مُسجىً بلا حراك. وعندما اندفع إلى الأمام وبحركة واحدة رمى جانباً المُلاءات، فوجد الشاب الأشقر الذي رآه في قاعة بوليير بول في الليلة السابقة، كانت عيناه مفتوحتين وجامدتين، ووجهه متورّم ومسودّ، فيما يسيل من كلا فتحتي أنفه خيط دم رفيع.

أطلق سايلوس صرخة طويلة ومرتعشة وأوقع الشمعة، ولم تعُد ركبتاه تحملانه أكثر، فسقط إلى جانب السرير.

استيقظ سايلوس من ذهوله الذي أغرقه فيه اكتشافه المرعب، على صوت طرقاتٍ لحوحة ولكن خافتة على باب غرفته. استغرقه الأمر بضع ثوان لتذكّر وضعه. وعندما سارع لمنع أي شخص من الدخول كان قد فات الأوان. لقد فتح الدكتور نويل الباب ببطء، كان مرتدياً قلنسوة نوم طويلة، وحاملاً قنديلاً أضاء وجهه الأبيض الطويل، وهو يمطّ ويميل برأسه كأنه طائر لكي يرى ماذا يحدث، وقد بدأ يتقدم في خطوات منسلّة إلى منتصف الغرفة.

قال الطبيب: «لقد ظننت أنني سمعت صرخة. وخشيتُ أنه قد أصابك مكروه لذا لم أتردّد في التطفّل عليك».

كان سايلوس، بوجهٍ محتقن وقلب نابض بالخوف، يحول بين الطبيب والسرير، لكنّه فقد صوته ولم يستطع أن يجيب.

تابع الطبيب حديثه قائلاً: «غرفتك مظلمة، ومع ذلك لم تتهيأ للنوم. لن تقنعني بعكس ما تراه عيناي. وحتى ملامح وجهك تقول بصراحة إنك بحاجة إلى صديق أو طبيب، فأيهما يجب أن يكون هنا؟ دعني أتحسّس نبضك، لأنه غالباً ما يكون المخبر الحقيقي عن القلب».

تقدّم الطبيب نحو سايلوس، الذي ظلّ يتراجع إلى الوراء، وسعى لإمساكهِ من معصمه، لكن الضغط على أعصاب الشاب الأمريكي أصبح أكبر من احتماله. فتجنّب الطبيب بحركة محمومة، وألقى بنفسه على الأرض، ثم انفجر بالنحيب.

حالما رأى الدكتور نويل الرجل الميت في السرير اظلّم وجهه، ووثب إلى الباب الذي تركه مواربا، وأغلقه على عجل وأحكم قفله بالمفتاح مرّتين.

صاح مخاطباً سايلوس بنبرة صارمة: «انهض! هذا ليس وقت النحيب. ماذا فعلت؟ لماذا هذه الجثة في غرفتك؟ تكلّم بصراحة، فأنت أمام شخص قد يساعدك. هل تتخيّل أنني سأؤذيك؟ هل تعتقد أن هذه الجثة، هذا اللحم الميت الممدّد على فراشك يمكن أن يغيّر المودّة التي أكنّها لك؟ آه، أيها الشاب الساذج! إن الرعب الذي ينظر بهِ القانون الأعمى والظالم إلى الجريمة، لا يرتبط بالفاعل أبداً في نظر محبّيه. إنني حتى لو رأيت الصديق الأقرب إلى قلبي سابحاً في بحار من الدم فإن هذا لن يغير بأي شكل من الأشكال عاطفتي نحوه». ثم أردف: «انهض، فما الخير والشر إلّا وهم، ولا شيء حقيقي في الحياة غير النصيب، وأياً تكن المصيبة التي وقعتَ فيها، فيمكنك الاعتماد عليّ، أنا إلى جانبك وسأساعدك حتى النهاية».

بهذا التشجيع، استجمع سايلوس شتات نفسه. وتمكّن أخيراً من سرد ما حدث بصوت واهن وبمساعدة من أسئلة الطبيب. لكنه أغفل تماماً ذكر المحادثة التي سمعها تدور بين الأمير وجيرالدين، لأنه لم يفهم مغزاها، كما ولم تكن لديه أية فكرة عن أنها كانت مرتبطة بأي نحوٍ بالورطة التي أوقع نفسه فيها.

صاح دكتور نويل: «يا للويل! يبدو أنك قد وقعتَ ضحية أخطر عصابة في أوروبا. أيها الفتى المسكين، أية حفرة وقعتَ فيها بسبب سذاجتك! في أي خطر مميت زلّت قدمك الغافلة!». ثم أردف: «هذا الرجل الإنجليزيّ، الذي رأيته مرتين، والذي أظن أنه مدبّر المؤامرة، هل يمكنك أن تصِفه؟ هل كان شابّاً أم رجلاً مُسناً؟ طويلاً أم قصيراً؟».

لكن سايلوس، برغم كل فضوله، لم تكن عنده عينٌ لمّاحة، لذا لم يقدّم سوى صورة عامة هزيلة من المستحيل تمييزها أو التعرّف عليها.

صاح الطبيب بغضب: «لو كان الأمر بيدي، لجعلتُ دقّة الملاحظة منهجاً تعليمياً في المدارس! ما فائدة البصر والكلام الواضح إذا لم يستطع الرجل أن يلاحظ ملامح عدوه ويتذكرها؟ لقد عرفتُ كل عصابات أوربا، وربما كنتُ سأتعرّف عليه، وأتمكّن بالتالي من اختيار السلاح الأفضل لأدافع عنك. عليك أن تحاول صقل هذه المهارة في المستقبل، يا فتاي المسكين، فربما تجدها ذات نفع عظيم».

كرّر سايلوس: «المستقبل! وأي مستقبل ينتظرني عدا المشنقة؟».

قال الطبيب: «ليس عمر الشباب إلا فترة الجبن. في هذا العمر تبدو المشاكل أكثر سواداً ممّا هي عليه في الحقيقة. أنا رجل عجوز ومع ذلك تراني لا أيأس أبداً».

سأله سايلوس: «هل يمكنني إخبار الشرطة بالقصة التي أخبرتُك بها؟ هل سيصدّقونها؟».

أجاب الطبيب: «بالتأكيد لا. فبحسب ما أرى من المكيدة التي وُرِّطتَ فيها، أن قضيتك ميؤوس منها من هذه الناحية، ففي عين السلطات الضيقة، أنت مذنب بلا شك. وتذكّر أننا لا نعرف غير جزء صغير من هذا المخطط، ولا بدّ أن مدبّري المكيدة قد رتّبوا العديد من الملابسات والأدلّة الأخرى التي ستظهر أثناء تحقيق الشرطة، والتي ستساعد على إلصاق التهمة بك بكل تأكيد».

صاح سايلوس: «إذن لقد قُضي عليّ!».

أجاب الدكتور نويل: «لم أقل ذلك، لأنني رجل حذر».

اعترض سايلوس، مشيراً إلى الجثة: «ولكن انظر إلى هذه الجثة في سريري! إنها شيء لا يمكن تفسيره، ولا التخلص منه، ولا التفكير فيه دون رعب».

أجاب الطبيب: «رعب! كلا. عندما تدقّ ساعة الإنسان، فإن جثته بالنسبة لي ليست أكثر من مجرد آلة ذكية أفحصها بالمبضع. عندما يصبح الدم بارداً وراكداً، لا يعود دم إنسان، عندما يموت الجسد، لا يعود هو نفس الجسد الذي نشتهيه في عشاقنا ونحترمه في أصدقائنا. عندما تغادر الروحُ الحيّة الجسدَ تغادره أيضاً النعمة والفتنة والرعب. عَوّد نفسك على أن تنظر إلى الجثة بنفس ثابتة، لأننا إذا أردنا تنفيذ خطّتي، فسيتعيّن عليك العيش بضعة أيام على مقربة دائمة من الشيء الذي يُرعبك الآن أشدّ الرعب».

صاح سايلوس: «خطّتك؟ ما هي خطّتك؟ أخبرني بسرعة يا دكتور، لأنني بالكاد أملك الشجاعة الكافية للبقاء حياً».

ومن دون ردّ، التفت الدكتور نويل إلى السرير، وشرع في فحص الجثّة.

غمغم قائلاً «إنه ميت. نعم، لقد أُفرِغت الجيوب كما ظننتُ. واقتُطع الاسم من القميص. لقد قاموا بعملهم على أكمل وجه وبكل دقّة. ولكن لحسن الحظ إنه قصير القامة وضئيل الحجم».

أنصت سايلوس لهذه الكلمات بقلق شديد. وأخيراً، انتهى الطبيب من فحص الجثة، ثم أخذ كرسياً، وجلس قبالة الشاب الأمريكي.

قال مبتسماً: «منذ دخولي إلى غرفتك، وبالرغم من انشغال أذنيّ ولساني، إلا أنني حرصتُ على إبقاء عينيّ يقظتين. وقد لاحظت أنك تحتفظ هناك في الزاوية، بصندوق السفر الضخم، الذي يدعونه بصندوق ساراتوغا، والذي يحمله مواطنو بلدك معهم في جميع أنحاء العالم.

ولغاية هذه اللحظة لم أتمكن أبداً من تصور أية فائدة من جعلهِ ضخماً لهذا الحدّ، لكنّي في ما بعد بدأتُ أكوّن فكرة بسيطة عن السبب. ولا أستطيع الجزم ما إذا كان الأمر متعلّقاً بتجارة العبيد أو لتفادي عواقب الاستعمال العاجل لسكين بوي ([32]). ولكن هناك شيء واحد أراه الآن بوضوح، إن الهدف من هذا الصندوق الضخم هو احتواء جسم بشري.«

صاح سايلوس: «دع عنك هذا يا دكتور، فليس الوقت وقت مزاح بالتأكيد».

أجاب الطبيب: «بالرغم من أن حديثي قد يحمل أحياناً مسحة من الهزل، لكنني الآن في غاية الجدّ. وأول شيء يتعين علينا القيام به، يا صديقي الشاب، هو إفراغ صندوقك من كل ما يحتويه».

أُذعن سايلوس لسلطة الدكتور نويل، ووضع نفسه تحت تصرفه. وسرعان ما أُفرِغ صندوق ساراتوغا من محتوياته، فتبعثرت أكوام الأغراض على الأرضية. ثم حمل كلاهما الجثة من السرير، سايلوس من جهة القدمين، والطبيب من الكتفين، وبعد عناء كبير طُوِيت الجثة وحُشِرت كاملة في الصندوق الفارغ. مع جهد مبذول من كليهما، أُغلق الغطاء بالقوة على هذه الأمتعة غير العادية، وأُقفِل الصندوق وربطه الطبيب بيديه بالحبال، بينما تخلص سايلوس من أكوام الأغراض المبعثرة، بين الدولاب والخزانة ذات الأدراج.

قال الطبيب: «حسناً، لقد تمّت الخطوة الأولى في طريقك إلى الخلاص. غداً، أو بالأحرى اليوم، يجب أن تكون مهمتك تبديد شكوك البوابّ، عليك أن تدفع له أجرة إقامتك. وعليك أن تثق بي في اتخاذ الترتيبات اللازمة للوصول إلى نتيجة مطمئنة. والآن اتبعني إلى غرفتي، لأعطيك منوماً آمناً وقوياً، لأنه مهما سيحدث، يجب أن تحصل على قسط كافٍ من الراحة».

سيتذكّر سايلوس اليوم التالي على أنه أطول يومٍ مرّ عليه في حياته، فقد بدا كما لو أنه لن ينتهي أبداً. فنأى بنفسه عن أصدقائه، وجلس في زاوية غرفتهِ وعيناه مسمّرتان على صندوق ساراتوغا وهو غارق في تفكير مُقبض. وها هو الآن يجني ثمار فضوله السابق، لأن ثقب التلّصص انفتح مرة أخرى، وشعر بوجود مُراقبة مستمرة من غرفة مدام زيفرين. باتت هذهِ المُراقبة مقلقة ومرهقة للغاية، لدرجة أنه اضطر أخيراً إلى سدّ ثقب التلصّص من جانبه. وعندما اطمأن إلى عدم وجود من يراه، أمضى جزءاً كبيراً من وقته في ذرف دموع الندم وفي الصلاة.

في وقت متأخر من المساء، دخل الدكتور نويل الغرفة حاملاً في يده ظرفين مختومين بلا عنوان، أحدهما ضخم إلى حد ما، والآخر نحيف للغاية بدا وكأنه فارغ.

قال وهو يجلس إلى الطاولة: «سايلوس، لقد حان الوقت الآن لأن أشرح لك الخطّة التي أعددتُها لخلاصك. في وقت مبكّر من صباح الغد، سيعود أمير بوهيميا، فلوريزيل إلى لندن، بعد أن قضى بضعة أيام يسلّي نفسه في الكرنفال الباريسي. كان من حسن حظي، أنني قبل فترة طويلة أسديتُ خدمة ما للعقيد جيرالدين، الصديق المقرّب من الأمير، وهي نوع من الخدمات الشائعة جداً في مهنتي، والتي لا يمكن أن ينساها كلانا أبداً. ولا حاجة لي أن أوضح لك طبيعة الالتزام الذي وقع على عاتقه نتيجة لهذهِ

الخدمة، ولكن يكفي أن أقول إنني كنت أعرف يقيناً أنه سيكون على استعداد لردّ الجميل بأية طريقة ممكنة. والآن، بما أنه من اللازم أن تدخل لندن دون أن يفتح أحد صندوقك، لذا ستمثّل الجمارك عقبة خطيرة أمامك. ولكن خطر لي، أن أمتعة شخص بالغ الأهمية مثل الأمير، تمرّ دون فحص من قبل ضباط الجمارك، على سبيل المجاملة. لذا تواصلتُ مع العقيد جيرالدين بهذا الشأن، ونجحت في الحصول على ردّ إيجابي. فإذا ذهبت في الغد قبل السادسة صباحاً إلى الفندق الذي يقيم فيه الأمير، فسيتمّ نقل حقيبتك كجزء من أمتعته، وسترافقه في الرحلة كفرد من حاشيته».

قال سايلوس: «لقد تذكّرت فيما أنت تتحدّث، أنني سبق وأن رأيت الأمير والعقيد جيرالدين، حتى أنني سمعت بعضاً من حديثهما في تلك الأمسية في قاعة بوليير بول للرقص».

ردّ الطبيب: «هذا أمر محتمل، لأن الأمير يحبّ الاختلاط بكل أنواع المجتمعات». وتابع قائلاً: «بمجرد أن تصل إلى لندن، ستنتهي مهمتك تقريباً. لقد أرفقتُ لك في هذا الظرف الضخم رسالة لم أجرؤ على عنونتها، ولكن في داخل الظرف الآخر ستجد اسم المنزل الذي يجب عليك حمل الرسالة وصندوقك إليه، وهناك سيؤخذ منك ولن يسبب لك قلقاً من بعدها أبداً».

قال سايلوس: «آه! كم أتمنى أن أصدّقك، ولكن كيف يكون ذلك ممكناً؟ أنت تعِدني بالخلاص، لكنني أسألك، هل إن عقلي قادر على قبول نهاية بعيدة الاحتمال إلى هذهِ الدرجة؟ فتلطّف وكُن أكثر كرماً واشرح لي قصدك».

بدا الطبيب متأثّراً حدّ التألّم.

أجاب: «أيها الفتى. أنت لا تعلم مدى صعوبة ما تطلبه مني. ولكن فليكن. أنا الآن معتاد على الإذلال، إضافة إلى أنه سيكون من الغريب أن أرفض طلبك هذا، بعد أن أطلعتُك على الكثير. فلتعلم إذن، بالرغم من أنني أبدو الآن كرجل هادئ للغاية، مقتصِد ومنعزل ومدمن على الدراسة؛ ولكنني عندما كنت أصغر سناً، كان اسمي ذات مرة يدوي كالرعد بين مجرمي لندن الأكثر دهاءً وخطورة، وبينما كنتُ في الظاهر وأمام الملأ موضع احترام وتقدير، إلا أن قوة تأثيري الحقيقية كانت تكمن في علاقاتي الأكثر سرّية وفظاعة وإجراماً. وإنني الآن أرسل بيدك خطاباً إلى واحدٍ من أتباعي القدماء، لكي يخلّصك من عبئك. لقد كانوا رجالاً من أمم مختلفة وأصحاب مهارات عديدة وذوي خبرة في كل أنواع الجرائم، يربطهم كلّهم يمين غليظ، ويسعون لنفس الغرض. كان القتل مهنة تلك الجماعة، وأنا الذي أقف أمامك الآن وأتحدث إليك وأبدو بريئاً، كنت زعيم تلك العصابة الخطيرة».

صاح سايلوس: «ماذا؟ أنت قاتِل؟ ومهنتك القتل؟ كيف يمكنني إذن قبول مساعدتك؟ وهل ينبغي عليّ قبول خدماتك؟ أيها العجوز الشرير والمجرم، هل تستغل شبابي ومحنتي لجعلي شريكاً؟».

ضحك الطبيب بمرارة.

وقال: «من الصعب إرضاؤك سيد سكودامور، لكنني الآن أعرض عليك خيارين، فإما أن تختار رفقة القتيل أو القاتل. إذا كان ضميرك صالحاً جداً بحيث لا يقبل مساعدتي، فقُل ذلك، وسأرحل فوراً. ومن الآن فصاعداً يمكنك التعامل مع صندوقك ومتعلقاته بالشكل الذي يلائم ضميرك المستقيم».

أجاب سايلوس: «أعترف أنني مخطئ، حريّ بي أن أتذكر كم كنتَ كريماً عندما عرضت حمايتي، حتى قبل أن أقنعك ببراءتي، وسأبقى أستمع إلى نصائحك بكل امتنان».

أجاب الطبيب: «هذا عظيم، أرى أنك بدأت تتعلّم بعض الخبرة الحياتية».

استأنف الشاب النيو إنغلاندي حديثه قائلاً: «في الوقت نفسه، بما أنك تعترف بنفسك أنك معتاد على هذا العمل الفظيع، وبما أن الأشخاص الذين أوصيتني بالذهاب إليهم هم شركاؤك وأصدقاؤك السابقون، فهل يمكنك أن تتولّى مهمّة نقل الصندوق بنفسك، وتخلّصني إلى الأبد من عبئه المقيت؟».

أجاب الطبيب: «أقسم لك أني معجب بجرأتك من كل قلبي. وهل تعتقد أنني لم أتدخل بما يكفي في قضيتك؟ صدّقني، لقد فعلتُ ما فيه الكفاية من أجلك. خذ أو اترك خدماتي كما عرضتها عليك، ولكن لا تزعجني بالمزيد من عبارات الامتنان، فأن امتنانك وذكاؤك لا يهمّاني بنفس القدر. وسيأتي عليك وقتٌ، لو قُدِّر لكَ أن تعيش عمراً مديداً وتُرزق بصحة بدنية وعقلية، ستنظر فيه إلى هذا الأمر بشكل مختلف، وتخجل من سلوكك هذه الليلة».

ولمّا أتمّ الطبيب قوله هذا، نهض من كرسيه، وكرّر تعليماته بإيجاز ووضوح، ثم غادر الغرفة قبل أن يمهل سايلوس أي وقتٍ للرد.

في صباح اليوم التالي توجّه سايلوس إلى الفندق، وقدّم نفسه، حيث استقبله العقيد جيرالدين بلطف، وأُزيحت عن قلبه من لحظتها كل همومه ومخاوفه بشأن صندوقه ومحتوياته المروعة. مرّت الرحلة بسلام، على الرغم من أن الشاب شعر بالذعر عندما سمع بالمصادفة الحمّالين يشتكون فيما بينهم من الثقل غير العادي لأمتعة الأمير. سافر سايلوس في عربة مع الخدم، لأن الأمير فلوريزيل اختار أن يكون في عربة وحده مع العقيد. ولكن

على متن السفينة البخارية، جذب سايلوس انتباه صاحب السمو عندما وقف مغموماً وهو يحدّق في كومة الأمتعة، لأنه كان لا يزال قلقاً من المستقبل.

علّق الأمير: «هذا شاب مثقل بالحزن».

أجاب جيرالدين: «هذا هو الشاب الأمريكي الذي استأذنتُك لكي يسافر مع حاشيتك».

قال الأمير فلوريزيل: «نعم، لقد ذكّرتني بتقصيري في واجبي بمجاملته».

ثم تقدّم نحو سايلوس، وخاطبه بأروع عبارات اللطف قائلاً: «يسعدني أيها الشاب أنني تمكّنتُ من إسدائك هذهِ الخدمة البسيطة التي توسط لك فيها العقيد جيرالدين، وتذكّر أنني سأكون سعيداً لمساعدتك في أيّة ضائقة مهما كانت كبيرة في المستقبل».

ثم راح يطرح بعض الأسئلة حول الوضع السياسي في أمريكا، أجاب عنها سايلوس بعقلانية ولباقة.

قال الأمير: «أنت ما زلتَ شاباً، ومع ذلك أراكَ في غاية الجدّ بالنسبة لمن هو في مثل عمرك، هل أن هذا بسبب أن ذهنك مشغول بدراستك؟ لكن على أية حال، سامحني على فضولي، ربما كنتُ أمسّ دون قصدٍ مني وتراً حساساً».

قال سايلوس: «سموّكم على حق. لدي سبب لأكون أكثر الرجال بؤساً على الأرض. لأنه ما من أحدٍ قد دفع ثمناً باهظاً مقابل سذاجته أكثر مني. لقد تعرضت لظلم فظيع».

أجاب الأمير فلوريزيل: «لن أطلب منك أن تصارحني، ولكن ضع في حسبانك أن توصية العقيد جيرالدين بمثابة رخصة لا تُخذل، وأنا لست على استعداد لمساعدتك فحسب، بل ربما أكون أكثر الناس قدرة على ذلك».

ابتهج سايلوس للطافة ونبل الأمير، ولكن سرعان ما عاودت عقله الأفكار الكئيبة. لأنه لا يمكن حتى لمحاباة أمير لمواطنٍ جمهوري النزعة، أن تُخفّف من الروح المغمومة.

وصل القطار إلى محطة تشارينغ كروس، وعلى النحو المعتاد، تعامل ضبّاط مصلحة الضرائب بكل مراعاة مع أمتعة الأمير فلوريزيل، وتركوها تمرّ دون تفتيش. كانت العربات الأكثر أناقة في الانتظار، ونُقِل سايلوس مع الآخرين إلى قصر الأمير. وهناك اجتمع بهِ العقيد جيرالدين، وعبّر عن سعادته لتقديم خدمة إلى أحد أصدقاء الطبيب الذي يكنّ له تقديراً عظيماً.

وأضاف قائلاً: «آمل أن الخزفيّات خاصتك لم تُصَب بأي ضرر. لقد أعطيت أوامر خاصة على طول الطريق للتعامل مع أمتعة الأمير بعناية».

ثم أمر الخدم بوضع إحدى العربات تحت تصرف الشاب، وأمرهم أيضاً بتحميل صندوق ساراتوغا على الفور في المقعد الخلفي للعربة. وبعدها صافح العقيد الشاب مودّعاً، واعتذر لاضطراره للذهاب بسبب انشغاله.

فضّ سايلوس الآن ختم الظرف الذي يحتوي على العنوان، ووجّه سائق العربة بنقله إلى بوكس كورت، المجاور لشارع ستراند. بدا كما لو أن المكان كان مألوفاً عند السائق، لأنه تفاجأ حالما سمع العنوان، وترجّى سايلوس لتكرار أوامره لكي يتأكّد. ركب سايلوس بقلبٍ متوجّس العربة الفاخرة التي أوصلته إلى وجهته. كان مدخل بوكس كورت ضيقاً جداً لأن تمرّ فيه عربة، إذ كان عبارة عن ممر مشاة ضيق بين سورين، وثمة مركز حراسة في كلا النهايتين. كان هنالك رجل يجلس في أحد هذين المركزين، لكنه قفز في الحال حالما رأى العربة، وتبادل إيماءة ودّية مع السائق، ثم فتح السائق الباب واستفسر من سايلوس عما إذا كان يجب عليه إنزال صندوق ساراتوغا، وإلى أي رقم منزل ينبغي حمله.

قال سايلوس: «من فضلك احمله إلى المنزل رقم ثلاثة».

بذل الرجال الثلاثة أقصى جهدهم لحمل الصندوق الثقيل، السائق والحارس وحتى سايلوس مدّ يد العون في هذهِ المهمة الشاقة، وقبل أن يتم إنزال الصندوق عند باب المنزل المقصود، هلع الشاب الأمريكي حين رأى مجموعة من المتسكعين ينظرون إليه. لكنه استجمع شجاعته وطَرَق الباب بملامح هادئة قدر استطاعته، وقدّم الظرف الآخر المختوم للشخص الذي فتح الباب.

قال: «إنه ليس في المنزل. ولكن إذا تركت رسالتك وعُدت في وقت مبكر غداً، فسأكون قادراً على إبلاغك ما إذا كان بإمكانه استقبالك وفي أية ساعة». وأضاف: «هل ترغب في ترك صندوقك؟».

هتف سايلوس: «أرغب بشدة». لكنّه في اللحظة التالية، ندِم على تسرعه، وأعلن بالنبرة المتشدّدة نفسها، أنه يفضّل حمل الصندوق معه إلى الفندق.

سخر حشد المتسكعين المتلصّصين من تردّده وتبعوه إلى العربة وهم يطلقون تعليقات مهينة. وناشد سايلوس، المكسوّ بالعار والرعب، الخدمَ أن يرشدوه إلى فندق هادئ ومناسب في الحيّ المجاور.

أنزلت عربة الأمير الفخمة سايلوس في فندق كرافن في شارع كرافن، وابتعدت على الفور، مخلّفة إياه وحيداً مع خدم الفندق. كانت هناك حجرة وحيدة شاغرة، في الطابق الرابع، مطلّة على الباحة الخلفية. حمل زوج من الحمّالين الضخام صندوق ساراتوغا إلى هذه الحجرة الصغيرة بكثير من العناء والتذمّر. ولا داعي لذكر أن سايلوس بقي ملاصقاً لهما طوال فترة حملهما الصندوق على السلالم، ومع كل خطوة يكاد قلبه أن يبلغ حنجرته من شدة الخوف. فكّر بينه وبين نفسه، ليست سوى خطوة واحدة عاثرة ويقع الصندوق من فوق السلالم كاشفاً عن محتواه الفظيع في أرضية الصالة.

حالما وصل إلى الغرفة، جلس على حافة سريره للتعافي من العذاب الذي خاضه للتوّ، لكنه ما كاد يجلس حتى ذُعر من حركة أحد الحمّالين، الذي كان قد جثا إلى جانب الصندوق، وكان يهمّ دون إذن بفك الحبال المربوطة بإحكام.

صاح سايلوس: «دعه! لا تلمسه! لن أحتاج لشيء منه أثناء فترة إقامتي هنا».

دمدم الرجل بحنق: «إذن ربما كان من الأجدر أن تتركه في الصالة في الأسفل بدلاً من كل العناء الذي تكبدناه في حمله. يا له من صندوق كبير وثقيل، لا يمكنني تصوّر ما لديك في داخله. لو كانت كل هذهِ نقود، فأنت بلا شك رجل أغنى مني».

كرر سايلوس وقد اعتراه اضطراب مفاجئ: «نقود؟ ماذا تقصد بالنقود؟ ليست لدي أية نقود، إنّك تتحدث كأيّ أحمق».

ردّ الحمّال مع غمزة ماكرة: «حسناً، يا كابتن، هدئ من روّعك، لن يمسّ أحد أموال فخامتك. يمكنك أن تأمن على أموالك معي مثلما تأمن عليها في بنك الحكومة». ثم أضاف: «ولكن كما ترى فأن الصندوق ثقيل وكان حمله مجهداً، لذا ما رأيك لو أعطيتني مكافأة لأشرب شيئاً في صحة فخامتك».

دفع سايلوس قطعتين من عملة نابليون ([33]) وهو يعتذر في الوقت نفسه لأنه مضطر لأن يدفع له بعملة أجنبية، مبرِّراً ذلك بأنه وصل من السفر إلى لندن للتوّ. فراح الرجل يتذمّر بمزيد من الاحتداد، وهو يقلبّ نظره دون رضا بين النقود في يده وصندوق ساراتوغا مرة تلو الأخرى، وأخيراً وافق على الانصراف.

كانت الجثة قد قبعت في صندوق سايلوس لمدة يومين تقريباً، لذا بمجرد أن صار النيو إنغلاندي التعيس وحيداً في غرفته، شرع يتشمّم كل الشقوق

والفتحات في الصندوق بحرص شديد وتدقيق محموم. لكن الطقس كان بارداً في تلك الأيام، وما زال الصندوق قادراً على احتواء سرّه المروّع.

أخذ كرسياً وجلس بجانب الصندوق ودفن وجهه بين يديه، ثم غرق في تفكير عميق. فكّر، إذا لم يتمّ تخليصه من هذا المأزق بأسرع وقت، فلا شك أن أمره سيُفتضح قريباً. لكنه كان وحيداً في مدينة غريبة، دون أصدقاء أو شركاء، وإذا فشلت توصية الطبيب، فلا ريب أنه سيُقضى عليه إلى الأبد. وتأمّل بوجومٍ خططه الطموحة للمستقبل. لن يصبح الآن بطل ومُمثل مسقط رأسه مدينة بانجور في مين ([34])، لن ينتقل، كما توقّع باعتزاز، من منصب إلى منصب آخر، ومن تكريم إلى تكريم، بل حريّ بهِ من هذهِ اللحظة أن يتخلّى عن الأمل في أن يكون رئيساً للولايات المتحدة، وأن يترك وراءه نصباً تذكارياً منحوتاً بأسوأ أسلوب فنّي ممكن لتزيين مبنى العاصمة في واشنطن. ها هو ذا، أسير جثة رجل إنجليزيّ مطويّة في صندوق الساراتوغا، وعليه أن يتخلّص منها فوراً، وإلا فهو سيفقد إلى الأبد فرصته في أن ينضم اسمه إلى قوائم المجد الوطني لبلاده!

وأخشى أنني لن أقوم بتدوين الألفاظ التي شتم بها الشابُّ الطبيبَ، والرجلَ المقتول، ومدام زيفرين، والحمّالين في الفندق، وخدم الأمير. وبكلمة واحدة، كلّ من كان مرتبطاً من قريب أو بعيد بمصيبته الفظيعة.

في حوالي الساعة السابعة مساء نزل منسلاً من غرفته لتناول العشاء. لكن غرفة القهوة مصفرّة الجدران رَوّعته، إذ بدا له أن عيون الضيوف تنظر إليه بريبة، وبقي عقله في غرفته في الأعلى مع صندوق ساراتوغا. كانت أعصابه في غاية التوتر، لدرجة أنه عندما جاء النادل ليقدم له الجبن، جفل ووثب من كرسيه، وسكب المتبقي في كأسه من مشروب المزر على غطاء الطاولة.

عرض النادل أن يصحبه إلى حجرة التدخين عندما ينتهي من العشاء، وعلى الرغم من أنه كان يفضل العودة فوراً إلى كنزه الخطير، إلا أنه كان يفتقر إلى الشجاعة للرفض. لذا اصطحبه النادل إلى الطابق السفلي حيث القبو الأسود المضاء بقنديل غازيّ، والذي كان، وربما لا يزال إلى الآن، بمثابة غرفة التدخين في فندق كرافن.

كان هناك رجلان كئيبا المنظر يلعبان البلياردو، يرافقهما مسجّل علامات متعرّق ومسلول. فتصوّر سايلوس آنئذ أنّهما الوحيدان اللذان يشغلان الغرفة. ولكن عندما ألقى نظرة ثانية، وقعت عيناه على شخص منزوٍ يدخن في ركن قصي، كان بعينين مُسبلتين وبهيئة محترمة ومتواضعة. وفي الحال أدرك أنه لا ريب رأى هذا الوجه من قبل، وعلى الرغم من أن الرجل قد غيّر ملابسِه بالكامل، لكنّ سايلوس عرف في الحال أنه ذات الرجل الذي وجده

جالساً عند مركز الحراسة عند مدخل بوكس كورت وساعده في حمل الصندوق من وإلى العربة. فما كان من الشاب النيو إنغلاندي إلا أن استدار وأقفل راكضاً، ولم يتوقّف إلى أن حبس نفسه داخل غرفته وأقفل الباب على نفسه.

وهناك، كان فريسة لأبشع التخيلات، جلس بجانب الصندوق الفظيع الحاوي على الجثة ولم يغمض له جفن طوال الليل. وقد ملأ قلبَه بمخاوف جديدة شتى، تلميحُ حمّال الأمتعة بأن صندوقه كان مليئاً بالذهب، فلم يتجرّأ على إغماض عينه ولا حتى للحظة. كما أن وجود ذلك الرجل من بوكس كورت في حجرة التدخين، وهو في حالة تنكّر واضحة، أقنعَهُ أنه صار الآن، محور مكيدة غامضة أخرى.

كان منتصف الليل قد حلّ منذ بعض الوقت، عندما فتح سايلوس باب غرفة نومه، مدفوعاً بشكوك مُقلِقة، ليختلس النظر إلى الممر. كان مضاءً بخفوتٍ بواسطة قنديل غازيّ وحيد. فرأى على بعد مسافة قصيرة من باب غرفته رجلاً يرتدي زيّ خدم الفندق نائماً على الأرضية. اقترب سايلوس بحذر من الرجل النائم. كان مستلقياً جزئياً على ظهره، وجزئياً على جنبه، وقد أخفى وجهه بساعده الأيمن فلم يكن بالإمكان التعرّف عليه. وبينما كان الأمريكي لا يزال منحنياً فوقه، فجأة، سحب النائم ذراعه كاشفاً عن وجهه وفتح عينيه، ووجد سايلوس نفسه مرة أخرى وجهاً لوجه مع المتسكع من بوكس كورت.

قال الرجل بكل تهذيب: «ليلة سعيدة يا سيدي».

لكن سايلوس نال منه الفزع فلم يتمكّن من الردّ، وعاد إلى غرفته بصمتٍ.

قرابة الصباح، وبعد أن أنهكته المخاوف، غطّ في النوم على كرسيّه واضعاً رأسه على الصندوق. وبالرغم من وضعية جسده المزعجة، وهذه الوسادة المروعة، إلا أنّه حظى بنومة طويلة وعميقة، لم يستيقظ منها إلا في ساعة متأخرة من النهار على صوتٍ طرقات حادّة على الباب.

أسرع ليفتح الباب، فوجد خادم الفندق.

سأل: «هل أنت نفس الرجل الذي ذهب بالأمس إلى بوكس كورت؟».

أقرّ سايلوس، بصوت مرتعش، بأنه من قام بذلك.

فقال الخادم وهو يقدّم ظرفاً مختوماً: «إذن، هذه الرسالة لك».

مزق سايلوس الظرف على عجالة ووجد داخله هذه العبارة المقتضبة: «اليوم، في الساعة الثانية عشرة».

وصل سايلوس إلى بوكس كورت في الموعد بالضبط. حمل عدد من الخدم الضخام الصندوق قبله، فيما أُدخل هو إلى غرفة، حيث يجلس رجل يدفّئ نفسه أمام الموقد وظهره إلى الباب. لم يجذب انتباه الرجل الجالس لا أصوات الأشخاص الكثيرين الداخلين والخارجين، ولا حتى الأصوات الناتجة من كشط الصندوق للألواح الأرضية العارية فيما كان يُحمل ويوضع على الأرض. وقف سايلوس في مكانهِ بهدوء والخوف يعذّبه بانتظار أن يتنازل الرجل ويعترف بوجوده.

ربما انقضت خمس دقائق قبل أن يستدير الرجل بكل هدوء، وإذا بهِ أمير بوهيميا، فلوريزيل.

قال الأمير بصرامة شديدة: «إذن، يا سيد، أهذهِ هي الطريقة التي تردّ بها جميلي؟ أن تضم نفسك لأشخاص من مراتب عليا، ليس لأي غرض آخر سوى الهروب من عواقب جرائمك. الآن فهمت لماذا كنت محرجاً مني عندما تحدثتُ معك البارحة».

صاح سايلوس: «صدّقني سموّكم، أنا بريء من كل شيء عدا سوء الحظ».

وراح يروي للأمير على عجالة وبكل صدقٍ الحكاية الكاملة لمصيبته.

قال سموه، عندما سمعه حتى النهاية: «أرى أنني كنتُ مخطئاً بحقك. أنت لست سوى ضحية. لذا، أنا لن أعاقبك، وسأبذل قصارى جهدي لمساعدتك». ثم أردف قائلاً: «والآن إلى العمل. افتح صندوقك في الحال، ودعني أرى ما يحتويه».

امتقع وجه سايلوس.

صاح: «أخشى النظر إليه».

أجاب الأمير: «ماذا تعني؟ أوَ لم تنظر إليه من قبل؟ هذهِ عواطف غير مبررة ويجب مقاومتها. إن مشهد رجل مريض، لا يزال بوسعنا مساعدته، ينبغي أن يكون أشدّ تأثيراً فينا من مشهد رجل ميت بات بعيداً عن المساعدة أو الأذى أو الحب أو الكراهية. تشجّع، يا سيد سكودامور». وبعد أن رأى أن سايلوس ما زال متردداً، قال: «لا أرغب بجعل طلبي أمراً».

استيقظ الشاب الأمريكي وكأنه كان في حلم، وبقشعريرة اشمئزاز أعدّ نفسه لحلّ الأربطة وفتح قفل صندوق ساراتوغا. وقف الأمير جانباً، يراقب بملامح هادئة ويداه خلف ظهره. كانت الجثة متيبسة تماماً، وقد كلفت سايلوس جهداً كبيراً، معنوياً وجسدياً، لمدّها باستقامة والكشف عن وجه الضحيّة.

جفل الأمير ووثب إلى الخلف من هول المفاجأة المؤلمة.

صاح: «ويلي! أنت لا تعرف أية هديّة قاسية قدّمتها لي؟ هذا الشاب واحد من حاشيتي، إنه شقيق صديقي المقرّب، لقد هلك في سبيل تنفيذ أوامري على أيدي رجال خونة مجرمين بلا رحمة». ثم أردف كما لو كان يتحدّث إلى نفسه: «مسكين يا جيرالدين، بأية كلمات سأبلغك بمصير أخيك؟ كيف يمكنني أن أجد عذراً لنفسي أمام عينيك، أو عيني الرّب، كل ذلك بسبب مخططاتي المتعجرفة التي أوصلت هذا الشاب المسكين إلى هذه النهاية الفظيعة الدموية وغير الطبيعية؟ آه يا فلوريزيل! آه يا فلوريزيل! متى سوف تتعلم التواضع الذي يحتاج أن يتعلّمه البشر؟ متى ستتوقف عن الانبهار بالصورة الخادعة للسلطة التي بين يديك؟» ثم صرخ: «سلطة؟ عن أية سلطة أتحدث! وهل هنالك رجل أكثر عجزاً مني؟ إنني أنظر إلى هذا الشاب الذي ضحيتُ به يا سيد سكودامور، وأشعر بمدى تفاهة أن يكون المرء أميراً».

تأثّر سايلوس عندما رأى حزن الأمير. وحاول أن يتمتم بعض كلمات التعزية، لكنّه انهار وانفجر بالبكاء.

دنا منه الأمير مشفقاً، وقد تأثّر بنواياه الحسنة، وأخذ بيده.

قال له: «تماسك. كلانا أمامه الكثير ليتعلّمه، لقد تعلّمنا اليوم درساً قاسياً، وسنكون بسببه رجالاً أفضل».

شكره سايلوس صامتاً بنظرة حانية.

قال الأمير وهو يقوده نحو منضدته: «اكتب لي عنوان الدكتور نويل على هذه الورقة، ودعني أنصحك بتجنب الاختلاط بهذا الرجل الخطير عندما تكون في باريس مرة أخرى. أعتقد أنه تصرّف في هذه المسألة باندفاع سخيّ وطائش، كان الهدف منه مساعدتك. لأنه لو كانت له يد في موت جيرالدين الشاب، لما تجرأ على إرسال الجثة إلى المجرم الحقيقي».

كرّر سايلوس باندهاش: «المجرم الحقيقي!».

قال الأمير: «مع ذلك، هذه الرسالة، التي أوصلَتها تدابير العناية الإلهية إلى يدي بشكل غريب، كانت موجّهة إلى المجرم نفسه، رئيس نادي الانتحار سيّئ الصيت. لا تحاول البحث أكثر في هذه الأمور المحفوفة بالمخاطر، ابتهج بمعجزة هروبك، واترك هذا المنزل حالاً. أمامي قضية ملحّة عليّ أن أعالجها، ويجب أن أهتم على الفور بأمر جثة هذا المسكين، الذي كان قبل وقتٍ قصير شاباً شجاعاً ووسيماً».

انحنى سايلوس بامتنان وخضوع للأمير فلوريزيل، لكنه تريّث لوهلة في ممر بوكس كورت إلى أن رأى الأمير يغادر في عربة رائعة لزيارة عقيد الشرطة هندرسون. خلع الشاب الأمريكي، جمهوري الهوى، قبعته لتحية العربة المغادرة بكل إخلاص. وفي نفس الليلة غادر بالقطار عائداً إلى باريس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

إلى هنا -يعلّق مؤلِّفي العربي- تنتهي حكاية الطبيب وصندوق ساراتوغا. لقد حُذفت بعض الأفكار التي تتطرّق إلى قوّة العناية الإلهية، مع أنها من صميم النصّ الأصلي، ولكنها لا تتناسب كثيراً مع ذوقنا الغربي، أودّ أن أضيف فقط أن السيد سكودامور قد بدأ في صعود سلم الشهرة السياسية، وبحسب المعلومات الأخيرة التي وصلتنا، قيل إنه شغل منصب العمدة في مسقط رأسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

مغامرة عربات الهانسوم (35)

أبرز الملازم براكنبيري ريتش نفسه إلى حدّ كبير في واحدة من المعارك العديدة التي وقعت في التلال الهندية. فقد كان هو من ألقى القبض على الزعيم وأتى به أسيراً بنفسه. لذا فقد أثنى الجميع على شجاعته. وكان المجتمع مستعداً للترحيب به باعتباره نجماً لامعاً إلى حدٍ ما. لكنه عندما عاد إلى الوطن، كان منهك القوى بسبب إصابته البليغة بضربة سيف، وبحمّى الملاريا التي لازمته طويلاً. كانت للملازم شخصية رائعة متواضعة غير متكلّفة، وكانت المغامرات عزيزة على قلبه، ولم يكن يحفل كثيراً بالتملّق، فكان أن مكث في المنتجعات الأجنبية وفي الجزائر، طوال فترة التسعة أيام التي دامت فيها فورة مجده، حتى بدأت بالتلاشي، عندها شدّ الرحال إلى لندن أخيراً، في بداية الموسم، دون أن يلفت وصوله الأنظار، كما كان يرغب. ولأنه كان يتيماً، ولم يكن له سوى أقارب بعيدين يعيشون في المقاطعات، فقد شعر وكأنه أجنبي في عاصمة البلاد التي بذل دمه من أجلها.

في اليوم التالي لوصوله ذهب لتناول العشاء بمفرده في نادٍ عسكري. وهناك صافح بعض رفاق السلاح القدامى، واستقبل تهانيهم الحارة. ولكن بما أنّهم كلّهم كانت لديهم بعض الارتباطات في المساء، فقد رحل الجميع ووجد نفسه وحيداً. كان يفكّر في زيارة المسرح، لذا كان يرتدي ثياباً رسمية. لكن المدينة العظيمة كانت جديدة عليه، لأنه ترعرع في المقاطعات، وانتقل من المدرسة إلى الكلية العسكرية، ومن ثم توجّه مباشرة إلى الإمبراطورية الشرقية، لذا كان يتطلّع ببهجة إلى كل المغامرات التي سيستكشفها في هذا العالم الجديد. أرجح عكازه ثم شقّ طريقه غرباً. كان مساءً لطيفاً، معتماً، منذراً بهطول المطر بين الحين والآخر. أثار تعاقب الوجوه تحت أضواء مصابيح الشارع خيال الملازم، وبدا له وكأنّه يستطيع التطواف إلى الأبد في هذا الجو المثير والغامض للمدينة، محاطاً بأسرار الحيوات الخاصة لأربعة ملايين شخص من قاطنيها. كان يُلقي بنظرات خاطفة على المنازل، ويتأمّل بعجبٍ ما كان يدور خلف النوافذ ذات الإضاءة الدافئة، كان يتصفّح الوجوه واحداً تلو الآخر، ويرى في كل واحد منها نية القيام بهدفٍ مجهول، إجرامياً كان أو طيباً.

فكّر: «إنهم يتحدثون عن الحروب، ولكن هذا هو الميدان الحقيقي لمعركة البشرية الكبرى».

ثم بدأ يتساءل هل سيمشي طويلاً في هذا المشهد المعقّد، دون أن تحين الفرصة ليحظى بنصيبه من المغامرات.

لكنّه تأمّل ثم قال لنفسه: «كل شيء سيأتي في وقته. ما زلتُ غريباً، وربما أبدو غريباً لمن يراني، ولكن عاجلاً أم آجلاً، سأنجرّ إلى الدوامة».

حلّ الليل عندما بدأت قطرات كبيرة من المطر البارد تتساقط فجأة من الظلام. هرع براكنبيري أسفل بعض الأشجار للاحتماء من المطر، وفيما هو واقف، رأى سائق عربة أجرة من طراز هانسوم يومئ إليه بمعنى أنه شاغر. تعاونت الظروف لصالحه، فرفع عكّازه في الحال ردّاً على السائق، وسرعان ما استقرّ في جندول لندن.

سأله السائق: «إلى أين يا سيدي؟».

ردّ براكنبيري: «إلى حيث تشاء».

وعلى الفور، وبسرعة مفاجئة، انطلقت عربة الهانسوم عبر المطر إلى متاهة من القيلات. كانت كلّ قيلّا تُشبه الأخرى، ولكلٍ منها حديقتها الأمامية، ولم تكن هناك سوى فروق ضئيلة للتمييز بين الشوارع والأزقة المهجورة المضاءة بخفوت، التي شقّت عربة هانسوم المُسرعة الطريق من خلالها، حتى أن براكنبيري سرعان ما فقد كلّ فكرة عن مكانه.

كان يميل للظنّ أن سائق عربة الأجرة كان يُسلّي نفسه بقيادته في جولة إثر الأخرى داخلاً وخارجاً حول حيّ صغير، ولكن كان في الانطلاق السريع للعربة شيء يشبه الغاية جعله يعتقد العكس. كان لدى السائق هدف أمام ناظريه وكان يغذّ السير قاصداً وجهة محدّدة كما يبدو. أعجب براكنبيري بمهارة الرجل في اختيار طريقه عبر هذه المتاهة، ولكن في الوقت نفسه ساوره القلق عن سبب هذه العجلة. كان قد سمع حكايات عن غرباء يُقتلون في لندن. هل ينتمي السائق إلى عصابة دموية غادرة؟ وهل كان يسوقه إلى حتفه بعجالة؟

ما كادت تخطر هذهِ الفكرة على ذهنه، حتى انعطفت العربة بحدّة حول زاوية، وتوقفت أمام بوابة حديقة إحدى القلل في طريق طويل وعريض. كان المنزل مضاءً إضاءة ساطعة. رأى براكنبيري عربة هانسوم أخرى وهي تغادر القيلّا، وقد ترجّل منها رجل دخل من الباب الأمامي، وكان في استقباله العديد من الخدم المهندمين. تفاجأ براكنبيري لأن السائق توقف أمام منزل كان يُقام فيه حفل استقبال على ما يبدو، لكنه لم يشكّ في أن ذلك كان نتيجة صدفة أو خطأ غير مقصود لا أكثر، لذا قرّر المكوث في مكانه بهدوء وهو يدخّن، حتى سمع باب الكوّة العلوية يفتح فوق رأسه.

قال السائق: «لقد وصلنا يا سيدي».

ردّ براكنبيري: «وصلنا؟ أين؟».

أجاب السائق بضحكة مكتومة: «لقد قلتَ لي أن آخذك إلى حيث أرغب، يا سيدي، وها قد وصلنا».

تفاجأ براكنبيري أن صوت السائق كان ناعماً ومهذباً إلى حدٍّ مذهل بالنسبة لرجل من مرتبة أدنى، وتذكّر السرعة التي كان يقود بها، ثم انتبه لأول مرة أن عربة الهانسوم هذهِ كانت أكثر فخامة من العربات المخصصة للنقل العام، التي تُشاهد في الشوارع عادة.

قال: «إنني أطالبك بتوضيح. هل تعتزم تركي هنا في المطر؟ أظن أيها الرفيق الطيب أنني وحدي لي الحقّ في اختيار المكان الذي أترجّل عنده».

أجاب السائق: «بالتأكيد أنّك أنت من يختار، ولكن ليس لدي أدنى شكّ في القرار الذي سيتخذّه رجل مثلك عندما أُخبرك بكل شيء. كما ترى هنالك حفل يُقام في هذا المنزل. وأنا لا أعرف ما إذا كان صاحب المنزل رجلاً غريباً عن لندن وليس له معارف، أو ما إذا كان رجلاً غريب الأطوار، كل ما أعرفه أنه استأجرني لأجلب بالعربة قدر ما يمكنني من الرجال الوحيدين المرتدين ثياباً مسائية رسمية، وهو يفضّل أن يكونوا من ضباط الجيش. كل ما عليك فعله ببساطة هو أن تدخل، وأن تبلغهم أن السيد موريس قد دعاك».

استفسر الملازم: «وهل أنت السيد موريس؟».

أجاب سائق عربة الأجرة: «أوه، لا. السيد موريس هو سيد المنزل».

قال براكنبيري: «إنها ليست طريقة معتادة لجمع الضيوف، ولكن ربما يكون هذا رجلاً غريب الأطوار يجاري نزوة بريئة لا تُقصد منها الإساءة». ثم أكمل قائلاً: «وإذا افترضنا أنني سأرفض دعوة السيد موريس، ماذا سيحصل؟».

أجاب السائق: «في تلك الحالة، تقتضي أوامري بإعادتك إلى المكان الذي أخذتك منه. ومن ثم أنطلقُ للبحث عن رجال آخرين حتى منتصف الليل. أخبرني السيد موريس أنه لا يرغب في أن يكون من بين ضيوفه أولئك الذين ليس لديهم ميل للمغامرة».

حسم الملازم قراره على الفور ما أن سمع العبارة الأخيرة التي قالها السائق.

فكّر وهو ينزل من عربة الهانسوم: «في النهاية، لم يمرّ وقت طويل في انتظار مغامرة لي».

ولم يكد يضع قدمه على الأرض، وفيما كان لا يزال يتحسس جيبه لإخراج الأجرة، انطلقت العربة من نفس الطريق الذي جاءت منه وبنفس السرعة الخطيرة. صاح براكنبيري خلف الرجل، لكنّه لم يُعره اهتماماً، واستمر في القيادة بعيداً. بيد أن صوت براكنبيري سُمع في المنزل، وفُتحت الباب مرة أخرى، فشعّت الأنوار الداخلية للمنزل على الحديقة، وهرع خادم يحمل مظلة لملاقاتهِ.

قال الخادم بنبرة مهذّبة للغاية: «لقد دُفعت أُجرة السائق».

ثم رافق براكنبيري طوال الطريق وحتّى صعوداً على الدرجات الأمامية للمنزل. وعندما دخل إلى البهو هرع إليه عدد من الخدم لمساعدته في التخلّص من قبعته وعصاه ومعطفه، وأعطوه في المقابل تذكرة تحمل رقماً، ثم سارعوا بهِ بكل تهذيب صعوداً على درج مزيّن بأصص لزهور استوائية فوّاحة، إلى باب غرفة في الطابق الأول. هنا استقبله كبير الخدم المهيب وسأله عن اسمه، وبعد أن أعلن على الحضور: «الملازم براكنبيري ريتش»، أدخله إلى غرفة الاستقبال في المنزل.

وهنا تقدّم شابّ، نحيف ووسيم بشكل استثنائي، فاستقبله بنفس القدر من الدماثة والمودة. كانت قد أشعلت المئات من أجود أنواع الشموع لإضاءة الغرفة المعطّرة مثل السلالم، بوفرة من الشجيرات المزهرة النادرة والجميلة. كانت الطاولة الجانبية مفروشة بمختلف أنواع الأطعمة المغرية. وكان العديد من الخدم يجولون جيئة وذهاباً محمّلين بالفواكه وكؤوس الشمبانيا. كان عدد الضيوف ستة عشر رجلاً، قليل منهم من تجاوز ريعان الشباب، وأغلبهم كانوا بمظهر يشعّ أناقة وبراعة. كانوا قد انقسموا إلى مجموعتين، جلست الأولى حول طاولة روليت، والأخرى حول طاولة يحمل أحد أفرادها مجموعة من أوراق لعبة الباكارات ([36]).

فكّر براكنبيري: «أرى أنني في صالون قمار خاص، وأن سائق عربة الأجرة كان هو السمسار».

وبينما كانت كفّ مضيّفه لا تزال في كفّه، وقفت عيناه على كل تفاصيل المكان، وكوّن عقله النتيجة في الحال. بعد هذا المسح السريع عادت نظراته نحو مضيّفه. في النظرة الثانية، ترك السيد موريس انطباعاً ثانياً أكثر وضوحاً ومفاجأة من الأول؛ الرقيّ البسيط في سلوكه، السموّ، الودّ، والشجاعة التي تجلّت في ملامحه، وهي لا تتناسب بأي شكل من الأشكال مع تصوّرات

الملازم عن صاحب صالة قمار، بالإضافة إلى أن نبرة حديثه جعلته يبدو كرجلٍ فاضل يتمتّع بمكانة مميزة في المجتمع. وجد براكنبيري نفسه تلقائياً معجباً بمضيفه، ومع أنه لام نفسه على ضعفه، إلا أنه لم يكن قادراً على مقاومة نوع من الجاذبية الودّية التي تكوّنت في داخله تجاه السيد موريس.

قال السيد موريس، وهو يخفض من نبرته: «لقد سمعت عنك، حضرة الملازم ريتش، وقد سُعدت بلقائك صدقاً. واسمح لي أن أقول، إن مظهرك يتوافق تماماً مع سُمعتك التي سبقتك إلينا من الهند. ولو أنّك عذرتني، ونسيتَ للحظة الطريقة غير الاعتيادية التي جئتَ بها إلى منزلي، فلن يكون لقاؤك شرفاً لي وحسب، بل وسعادة حقيقية». ثم أضاف ضاحكاً: «ففي النهاية، إن الرجل الذي يمزّق فرسان الهمج المتمرّدين تمزيقاً، لا يمكن أن يفزع من خرق الآداب، مهما كان هذا الخرق خطيراً».

بهذهِ الكلمات قاده إلى المائدة وقدّم له شراباً منعشاً.

فكّر الملازم: «أقسم بشرفي أن هذا الرجل واحد من ألطف الرجال، وأن هذا الجمع بلا شكّ واحد من أبهج المجتمعات التي يمكن للمرء أن يصادفها في لندن».

ثم احتسى بعض الشمبانيا، فوجد مذاقها ممتازاً. وبعد أن انتبه إلى أن العديد من الحاضرين كانوا يدخّنون، أشعل هو الآخر سيجاراً من نوع مانيلّا ([37])، واقترب من طاولة الروليت، حيث كان يراهن أحياناً ويراقب أحياناً أخرى حظوظ اللاعبين الآخرين بابتسام. وأثناء ما كان يتجوّل، انتبه فجأة أن جميع الضيوف كانوا يخضعون دون علمهم لفحصٍ دقيق. فقد كان السيد موريس يتجوّل هنا وهناك، منشغلاً ظاهرياً بشؤون الضيافة، ولكنه كان يلقي لمحة خاطفة ثاقبة كلّما سنحت له الفرصة، ولم يفلت أي رجل في الحفلة من نظراته الفاحصة المفاجئة. كان يقيّم سلوك ذوي الخسارات الثقيلة، ويقدّر قيمة الرهانات، ويتوقف خلف كل اثنين منهمكَين في الحديث. باختصار، لم تكن هناك أية سمة مميزة لأي من الضيوف إلا وبدا وكأنه يلتقطها ويسجلها في عقله. فبدأ براكنبيري يشكّ ما إذا كانت هذهِ بالفعل صالة قمار، فقد بدت أقرب لجوّ محكمة تحقيق خاصة. فبدأ هو نفسه يراقب السيد موريس ويتابعه في كل تحرّكاته. وعلى الرغم من أن المضيّف كانت يمتلك ابتسامة جاهزة مرحِّبة، لكنّه تخيّل كما لو أن خلف هذه الابتسامة، ثمة روح مُضناة ومهمومة ومشغولة الفكر تكمن تحت قناع. كان الرفاق حول براكنبيري يضحكون ويلعبون، لكنّه فقد الاهتمام بهم.

فكّر براكنبيري: «إن هذا الرجل موريس، يُخفي أمراً ما. هنالك غاية خفيّة تحرّكه. وسأجعل مهمتي هي اكتشافها».

كان السيد موريس يستدعي بين الحين والآخر أحد ضيوفه ويأخذه على انفراد، وبعد محاورة وجيزة في غرفة الانتظار، كان يعود بمفرده، ولا يظهر الضيف المعنيّ بعدها أبداً. وبعد أن تكرّر هذا الأمر لعدة مرات، كان فضول براكنبيري قد وصل لأقصى درجاته. وقرّر كشف هذا اللغز الصغير على الفور. فتمشى على مهلٍ حتى دخل غرفة الانتظار، وهناك وجد نافذة غائرة مخفية بستائر ذات لون أخضر عصري. فأخفى نفسه وراءها على عجل. ولم ينتظر طويلاً قبل أن يسمع وقع خطوات وأصوات تدنو منه. وعندما اختلس النظر من فرجة بين الستائر، رأى السيد موريس قادماً من الغرفة الرئيسية، وهو يصطحب شخصاً سميناً مُتوّرد البشرة، يبدو إلى حدٍ ما بهيئة تاجر مسافر، كان براكنبيري قد انتبه إليه مسبقاً بسبب ضحكته الفجّة وسلوكه الفظّ على طاولة القمار. توقف الثنائي أمام النافذة مباشرة، بحيث لم يّضيع براكنبيري أية كلمة من الحوار التالي الذي دار بينهما:

قال السيد موريس، بأكثر النبرات استرضاء: «أطلب منك المعذرة ألف مرة! وإن بدوتُ وقحاً، فأنا على ثقة من أنك ستسامحني بسرعة. يمكن أن يحدث سوء الفهم في مدينة واسعة مثل لندن على الدوام. وفي هذهِ الحالات، فأن أفضل ما يمكن أن نأمله هو تصحيح الأمر بأسرع وقت ممكن. أخشى أنك قد ارتكبتَ خطأً عندما شرّفتني بزيارتك إلى منزلي المتواضع، لأنني -لو سمحتَ لي بالحديث بصراحة- لا أتذكّر أنني رأيتك من قبل إطلاقاً. اسمح لي أن أطرح السؤال مباشرة، بلا إسهاب لا لزوم له -بالنهاية، إن كلمة الشرف تفي بالغرض بين السادة النبلاء- في أي منزل تظنّ أنك مدعوّ حالياً؟».

«في منزل السيد موريس»، أجاب الرجل بارتباك وقد تزايد حرجه بشكل واضح ما أن سمِعَ الكلمات الأخيرة.

استفسر المضيّف: «السيد جون موريس أم السيد جيمس موريس؟».

أجاب الضيف التعيس: «أنا حقاً لا أستطيع اخبارك. لأنه ليست لدي أية معرفة شخصية بالرجل الآخر مثلما ليست لي معرفة شخصية بحضرتك».

قال السيد موريس: «كما ظننتُ. في الحقيقة، هناك شخص آخر يحمل الاسم نفسه في آخر الشارع. وليس لدي شكّ في أن الشرطي في الشارع سيكون قادراً على إعطائك رقم منزله. صدّقني، أنا سعيد بسوء الفهم الذي منحني متعة مرافقتك طوال هذا الوقت، ودعني أعرب عن أملي في أن نلتقي مرة أخرى بطريقة اعتيادية أكثر من هذهِ. والآن، لن أحتجزك لفترة أطول بعيداً عن أصدقائك». ثم أضاف رافعاً صوته مُنادياً كبير الخدم: «جون! هلا رافقت هذا الرجل النبيل إلى الخارج، واحرص على أن تناوله معطفه».

وبكل لطف رافق السيد موريس ضيفه إلى حدّ باب غرفة الانتظار، ثم تركه تحت رعاية كبير الخدم. وبينما مرّ بالقرب من النافذة، ليعود إلى غرفة الاستقبال، سمعه براكنبيري يطلق تنهيدة عميقة، كما لو أن ذهنه كان مشغولاً بهمٍ عظيم، وأعصابه منهكة بسبب المهمّة التي كانت على عاتقه.

تابعت عربات الهانسوم لما يقرب من الساعة القدوم بنفس هذه الوتيرة، وتوجّب على السيد موريس أن يستقبل ضيفاً جديداً مقابل كل ضيف سابق يرسله بعيداً، وهكذا حافظت المجموعة على عددها كاملاً غير منقوص. ولكن مع قرب انتهاء تلك الساعة، بدأ عدد القادمين الجُدد يقلّ شيئاً فشيئاً، حتى انقطعوا عن المجيء تماماً. وفي نفس الوقت، استمرت عملية الاستبعاد بدأبٍ لا يعوقه شيء. والآن، بدأت غرفة الاستقبال تبدو فارغة. أوقفت لعبة الباكارات بسبب عدم وجود موّزع ورق. قال بعضهم ليلة سعيدة وغادروا من تلقاء أنفسهم دون أن يقابَلوا بأي اعتراض، وفي غضون ذلك، ضاعف السيد موريس من اهتمامه بأولئك الذين بقوا. وصار يتنقّل من مجموعة إلى أخرى ومن شخص لآخر بنظرات تشعّ ودّاً، ويتبادل معهم أمتع الأحاديث. كان في الحقيقة، أقرب لمضيّفة منه إلى مضيّف، فقد كان هنالك غنج أنثوي وتلطّف في أسلوبه الذي سحر قلوب الجميع.

وفيما كان عدد الضيوف يتضاءل، تمشى الملازم ريتش لوهلة خارجاً من غرفة الاستقبال إلى الصالة طلباً لهواء نقي. لكنه لم يكد يجتاز عتبة غرفة الانتظار حتى تسمّر في مكانه عندما اكتشف مشهداً مثيراً للدهشة. لقد اختفت كل أصص الشجيرات المزهرة من السلالم، وكانت هنالك ثلاث عربات نقل أثاث متوقفة أمام بوابة الحديقة، فيما شُغل الخدم بحمل الأثاث وتفكيك المنزل من جميع الجوانب. حتى أن بعضاً منهم كانوا قد ارتدوا معاطفهم استعداداً للمغادرة. كان الأمر أشبه بنهاية حفلة تُقام في الريف، حيث يُستأجر كل شيء من لوازم الحفل عن طريق عقدٍ. لقد كان أمام براكنبيري الكثير من الأمور ليتأملها. فأولاً، هنالك الضيوف الذين صُرفوا، ولم يكونوا في النهاية ضيوفاً حقيقيين، والآن الخدم الذين تفرّقوا، ولا يمكن أن يكونوا خدماً حقيقيين.

سأل نفسه: «هل كان المكان بأكمله خدعة؟ فقاعة صابون يجب أن تنفجر قبل الصباح؟».

وما أن رأى براكنبيري فرصة مواتية، حتى هرع إلى الطوابق العليا من المنزل. كان الأمر كما توقع. كان يركض من غرفة إلى أخرى، ولا يرى أية قطعة أثاث ولا أية لوحة معلّقة على الجدران. وعلى الرغم من أن جدران المنزل كانت مطلية ومغطاة بورق الجدران، إلا أن المنزل لم يكن مأهولاً

في الوقت الحالي فحسب، بل يبدو أنه لم يكن مأهولاً على الإطلاق. تذكر الضابط الشاب جوّ المنزل العام المُداهن والمأهول والمِضياف الذي أدهشه حالما وصل. لا شكّ أن تنفيذ خدعة بهذا المستوى يكلّف ثمناً باهظاً.

إذن، من هو السيد موريس؟ ما هي نواياه؟ ولماذا لعب دور صاحب المنزل لليلة واحدة في منطقة نائية غرب لندن؟ ولماذا جمع ضيوفه من الشوارع جُزافاً، متكبّداً المخاطر؟

أدرك براكنبيري فجأة أنه تغيّب عن الحفلة لفترة طويلة، ولا بدّ أنهم سيلاحظون غيابه، لذا سارع للانضمام إلى المجموعة. خلال فترة تغيبه كان الكثيرون قد غادروا، ولم يكن هناك أكثر من خمسة أشخاص، بضمنهم الملازم ومضيّفه، في غرفة الاستقبال التي كانت قبل قليل مكتظة بالضيوف. عندما عاد إلى الغرفة استقبله السيد موريس بابتسامة، ثم نهض على الفور.

قال: «لقد حان الوقت، أيها السادة، لأشرح لكم هدفي في خداعكم واستدراجكم من ارتباطاتكم. أنا واثق من أنكم لم تجدوا هذه الأمسية مملّة، لكنني أعترف أن هدفي لم يكن الترفيه عنكم في وقت فراغكم، ولكن لأطلب مساعدتكم في مسألة خطيرة». وأردف: «أنتم جميعاً رجال نبلاء، ومظهركم يفيكم حقكّم، وأنا لا أطلب ضماناً أكثر من هذا. وبالتالي، سأتحدث معكم بلا مواربة، إنني أطلب منكم مساعدتي في مهمة خطيرة وحساسة، خطيرة لأنكم قد تجازفون بأرواحكم، وحساسة لأنني يجب أن أطلب منكم التكتّم المطلق على كل ما سترونه وتسمعونه. وأدرك تماماً أن هذا الطلب قد يكون مُبالغاً بهِ لحدٍ هزلي تقريباً عندما يأتي من شخص غريب كلياً، لذا أودّ أن أضيف حالاً، لو أن هناك حاضراً واحداً قد سمع ما يكفيه ويودّ المغادرة، أو إذا كان هناك شخص واحد من بين المجموعة لا يرغب بالمشاركة في المهمّة التي تتطلّب ثقة عظيمة بالنفس وتفانياً كيخوتياً خالصاً، فهو حرّ بالمغادرة، وهذه يدي ممدودة إليه لأصافحه، وأتمنى له ليلة سعيدة وليذهب مصحوباً بدعائي له بالتوفيق من كل قلبي».

استجاب لهذه المناشدة رجل أسود طويل القامة، مُحدودَب الظهر.

قال: «إنني معجبٌ بصراحتك يا سيدي، أما عني، فأنا أختار الرحيل. لن أعترض، ولكن يجب أن أعترف أن حديثك ملأني بأفكار مريبة. لذا أنا راحل، كما قلتُ، وربما تعتقد أنه ليس لدي الحقّ في إضافة أية كلمة أخرى».

أجاب السيد موريس: «على العكس. سأكون ممتناً للغاية لو قلتَ كل كلمة تجدها ضرورية، لأنه من المستحيل المبالغة بخطورة هذهِ المهمة».

عندها استدار الرجل الطويل مخاطباً الآخرين قائلاً: «إذن، أيها السادة، ما قولكم؟ لقد حظينا بأمسية بهيجة، فما رأيكم أن نعود جميعاً إلى منازلنا بسلام؟ وأنا على ثقة من أنكم في صباح الغد ستجدون أن اقتراحي بالرحيل كان جيداً، عندما تستيقظون وترون الشمس مرة أخرى وأنتم في ضمير مرتاح وفي أمان».

نطق المتحدث الكلمات الأخيرة بنبرة مهيبة تزيد من قوة تأثيرها، وعلا وجهه تعبير فريد، مليء بالجدية والخطورة. فنهض رجل آخر من المجموعة على عجل، وقد بدا قلقاً، ومستعداً للمغادرة. بقي رجلان فقط، متمسكان بموقفهما، براكنبيري ورائد في سلاح الفرسان عجوز بأنف أحمر، كان هذان الاثنان فقط هما من حافظا على سلوكٍ ثابتٍ غير مبالٍ، وبغضّ النظر عن النظرات الذكية التي تبادلاها سريعاً، فقد يحسب المرء أنّ النقاش الذي انتهى للتوّ لم يؤثّر فيهما إطلاقاً.

رافق السيد موريس الرجلين الفارّين حتى الباب وأغلقه خلفهما، ثم استدار، وكشف عن ملامح ممزوجة بالارتياح والحيوية، وخاطب الضابطين على النحو التالي.

قال السيد موريس: «لقد اخترت رجالي مثلما اختار يشوع ([38]) رجاله في الكتاب المقدس. وأعتقد الآن أنّ عندي خيرة رجال لندن. لقد سرّ مظهركما سائقَي عربتَي الهانسوم، ثم أسعدني، ولقد راقبت سلوكيكما في وسط مجموعة غريبة، وفي ظلّ أكثر الظروف غرابة، ودرست كيف لعبتما القمار وكيف تقبّلتما خسارتيكما، أخيراً، لقد وضعت أمامكما اختباراً من تصريح صاعق، وتلقيتماه وكأنكما تتلقّيان دعوة للعشاء». ثم صاح: «الآن تيقّنتُ أنه لم تذهب عبثاً السنوات التي قضيتها رفيقاً وتلميذاً لأشجع وأعقل حكّام أوربا».

علّق الرائد قائلاً: «احتجتُ في قضية (بندر تشانغ)، لاثني عشر متطوعاً، فلبّى كل جندي في صفوفي النداء، ولكن بالطبع، لاعبو القمار ليسوا مثل جنود فوج يتعرض للنيران. لذا أفترضُ أنك يجب أن تكون راضياً، لأنك عثرت على اثنين، واثنين لن يخذلانك في معركتك. أما بالنسبة للرجلين اللذين هربا، فأنا أحسبهما من أكثر الكلاب خسة من الذين قابلتُ إطلاقاً». ثم أضاف مخاطباً براكنبيري: «لقد سمعت الكثير عنك في الآونة الأخيرة، أيها الملازم ريتش، ولا أشكّ في أنكّ قد سمعت عني أيضاً. أنا الرائد أوروك».

ثم مدّ المحارب المخضرم يده الحمراء والمرتعشة ليصافح الملازم الشاب.

أجاب براكنبيري: «ومن هذا الذي لم يسمع بك».

قال السيد موريس: «عند تسوية هذه المسألة الصغيرة، أنا على يقين من أنكما ستظنان أنني أحسنتُ مكافأتكما، لأنني لا أستطيع تقديم خدمة أكثر قيمة من تعريفكما ببعضكما البعض».

قال الرائد أوروك: «والآن أيها السيد موريس أخبرني، هل الأمر يتعلّق بمبارزة؟».

أجاب السيد موريس: «إنها مبارزة إلى حدٍ ما، مع أعداء مجهولين وخطرين، وأخشى أنها مبارزة حتى الموت». ثم تابع قائلاً: «يجب أن أرجو منكما، أن تتوقّفا عن مناداتي باسم موريس، ونادياني إذا سمحتما هامر سميث. أنا لا أودّ الكشف عن اسمي الحقيقي ولا اسم الشخص الذي أرغب بتقديمه لكما في أسرع وقت، وستُسديان إليّ خدمة لو أنكما لن تسألا أو تحاولا اكتشاف اسمينا. قبل ثلاثة أيام، اختفى الشخص الذي أتحدّث عنه فجأة من المنزل. ولم أتلقّ أية معلومة عنه وعن مكانه حتى هذا الصباح. ويمكنكما تخيّل مقدار قلقي عندما أخبركما أنه كان منخرطاً في مسعى يتعلّق بتحقيق عدالة شخصية. لقد ألزم نفسه بيمين تعيس حلَف بهِ بتسرّع واستسهال، فقد وجد من اللازم، دون اللجوء إلى القانون، أن يخلّص الأرض من وغدٍ غدّار ودمويّ. وبسبب هذا المسعى، قتل المجرم أحد أصدقائنا وشقيقي. وأعتقد أن صديقي، الرجل الذي أتحدث عنه، معرض لنفس الخطر، لكنه على الأقل لا يزال على قيد الحياة، وكلّه أمل، كما تثبت لكما هذهِ الرسالة».

وقدّم المتحدث، الذي لم يكن سوى العقيد جيرالدين بحدّ ذاته، رسالة مكتوب فيها الآتي:

«حضرة الرائد هامرسميث، يوم الأربعاء، الساعة الثالثة صباحاً، سيقوم رجل من أتباعي الخُلّص بإدخالك من الباب الصغير إلى حدائق قصر روتشستر هاوس، ريجنت بارك. يجب أن أطلب منك ألّا تتأخر ولو حتى ثانية. وأرجو منك إحضار صندوق السيوف خاصتي. وأحضر معك، إذا تمكّنتَ من العثور على من مثلهما، رجلين من السادة النبلاء المعروفين بحسن السلوك والتكتّم، بشرط أن لا يكونا يعرفانني شخصياً، لأن اسمي يجب أن يبقى خارج هذه القضية».

التوقيع

ت. غودال

وبعد أن قرأ الرجلان الرسالة وأشبعا فضولهما قال: «إن صديقي رجل يحبّ أن تُنفّذ تعليماته حرفياً، حتى لو أنه لم يكن يحمل لقباً، فبسبب حكمته بحدّ ذاتها. لا أحتاج إلى أن أخبركما، أنني لم أقم بزيارة حيّ روتشستر هاوس من

قبل مطلقاَ، وأني، مثلكما تماماَ، أجهل طبيعة معضلة صديقي. وأني حالما تلقيت هذه الرسالة، توجّهتُ بنفسي إلى مقاول تأثيث ليفرش المنزل الذي نحن فيهِ الآن، وفي غضون ساعات قليلة، عمّ المنزل جوّ احتفالي. يجب أن تقرّا أن خطتي كانت خلّاقة، وبما أنها أمّنت لي خدمات رجلين عظيمين، كالرائد أوروك والملازم براكنبيري ريتش، فليس لدي أدنى سبب للندم على اللجوء لمثل هذه الخطة. ولكن أخشى أن الخدم في المنازل المجاورة سيستيقظون على حدث غريب، لأن المنزل الذي كان ممتلئاً هذا المساء بالزائرين والأضواء، سيجدونه صباح الغد مهجوراً ومعروضاً للبيع». أضاف العقيد: «إذن، حتى في أكثر المواقف خطورة هنالك جانب ظريف».

قال براكنبيري: «ولنأمل أن نجعل له نهاية سعيدة أيضاً».

نظر العقيد في ساعته، وقال: «الساعة الآن تمام الثانية. أمامنا ساعة واحدة فقط، وهناك عربة أجرة سريعة في انتظارنا عند الباب. أخبراني هل بإمكاني الاعتماد على مساعدتكما أم لا؟».

أجاب الرائد أوروك: «خلال حياتي الطويلة، لم أتراجع قط عن أي شيء، حتى لو كان من أجل رهان فحسب».

أما براكنبيري فقد أبدى استعداده للقيام بالمهمة بألطف العبارات وأحسنها. وبعد أن شربوا كؤوس النبيذ، سلّم العقيد كل واحد منهما مسدّساً محشواً، ثم ركب الثلاثة في العربة وانطلقوا إلى العنوان إيّاه.

كان روتشستر هاوس قصراً خلّاباً على ضفاف القناة. وقد عزلته الحديقة الشاسعة عن إزعاجات الحي كلياً. بدا المكان وكأنه حدائق الأيل ([39]) لنبيل عظيم أو مليونير. من الشارع، وعلى مدّ النظر، لم يكن هناك بصيص من النور في أية نافذة من نوافذ القصر العديدة، وبدا المكان مهملاً ومهجوراً، كما لو أنّ سيد القصر قد غادره منذ فترة طويلة.

نزل الرجال الثلاثة من العربة، وسرعان ما وجدوا الباب الصغير، الذي كان في الحقيقة، نوعاً من الأبواب الخلفية المؤدية إلى ممرّ بين جداري الحديقة. كان لا يزال أمامهم عشر أو خمس عشرة دقيقة على الموعد المحدّد، هطل المطر بغزارة فاحتمى المغامرون الثلاثة تحت نبتات اللبلاب المتسّلق، وتحدثوا بنبرة خافتة عن الاختبار المنتظر.

فجأة رفع جيرالدين إصبعه ليأمرهم بالصمت، فأصاخ الثلاثة أسماعهم لأقصى حدّ. ومن خلال ضجيج المطر المستمر، سُمعت خطوات وأصوات رجلين من الجانب الآخر من الجدار. وبينما كانا يقتربان، استطاع براكنبيري،

الذي كانت حاسة سمعه حادّة بشكل ملحوظ، أن يميّز بعض الأجزاء من حديثهم.

سمع أحدهما يقول: «هل حُفِر القبر؟».

أجاب الآخر: «نعم، إنه خلف أشجار الغار. عندما ننتهي من عملنا، يمكننا تغطيته بكومة من الأوتاد».

ضحك المتحدث الأول، فكانت بهجته صادمة للمستمعين على الجانب الآخر.

قال: «بعد ساعة من الآن».

ومن وقع الخطوات، كان من الواضح أن الاثنين قد انفصلا، وسارا في اتجاهين متعاكسين.

بعدها على الفور تقريباً، فُتح الباب الخلفي بحذر، وبرز منه وجه أبيض، وشوهدت يد تلوّح للمراقبين ليتقدّموا. في صمت مطبق، اجتاز الرجال الثلاثة الباب، الذي أُغلِق خلفهم في الحال، وتبِعوا دليلهم عبر عدة مجازات ضيّقة في الحديقة إلى مدخل المطبخ في المنزل. كانت هناك شمعة واحدة مشتعلة في المطبخ الكبير المرصوف، الذي كان يفتقر للأثاث المألوف. وبينما شرع الجميع في الصعود سراعاً على سلالم المطبخ الملتوية، كان هناك ضجيج هائل من الجرذان الهاربة يشهد بوضوح أكبر على أن المنزل كان مهجوراً.

سبقهم دليلهم حاملاً الشمعة. كان رجلاً نحيلاً، محدوداً بشدة، لكنه لا يزال رشيقاً. كان يلتفت من حين لآخر، ليذكّرهم عبر إيماءاته بتوخي الصمت والحذر. كان العقيد جيرالدين على أعقابه، متأبطاً صندوق السيوف تحت أحد ذراعيه، وممسكاً بمسدس محشو باليد الأخرى. خفق قلب براكنبيري بشدة. لقد أدرك أنهم لا يزالون على الموعد، لكنّه قدّر من عجلة الرجل العجوز أن ساعة العمل باتت قريبة. كانت ظروف هذه المغامرة غامضة ومُتوعّدة بالمخاطر، ويبدو أن المكان قد اختير بعناية شديدة لاقتراف أفظع الشرور، لدرجة أنه قد يُصفح عن رجل أكبر سناً من براكنبيري لو بدر منه أي قدر من الخوف، فيما كان ركب الرجال يتقدّم على السلالم الملتوية.

في نهاية السلالم، فتح الدليل باباً، وأدخل الضباط الثلاثة قبله إلى غرفة صغيرة، كانت مضاءة بقنديل مدخّن ووهج نار موقد ضعيفة. في زاوية المدخنة، جلس رجل في مقتبل عمره، قوي البنية لكنه بهيئة مهذبة وقيادية. وكانت جلسته وملامحه توحيان برباطة الجأش، كان يدخن سيجار جروت

بكثير من المتعة والتروي، وعلى طاولة بجانب مرفقِه انتصبت كأس طويلة فيها مشروب فوّار نشر في الغرفة رائحة طيبة.

قال وهو يمدّ يده لمصافحة العقيد جيرالدين: «أهلاً، كنتُ أعرف أنه يمكنني الاعتماد على دِقّتك في المواعيد».

أجاب العقيد بانحناءة احترام: «وعلى إخلاصي لك».

قال الرجل الأول: «قدّمني لأصدقائك».

فلما تمّ التعارف بينهم، قال الرجل بكل ودٍ ودماثة: «أتمنى أيها السادة لو كان يمكنني أن أقدم لكما برنامجاً أكثر بهجة، فأنا أعرف أنه من غير اللائق مني، أن أشرك، في أول لحظة من التعارف، أصدقائي الجدد في شؤون جادة، لكن الظروف القاهرة أقوى من آداب الضيافة والرفقة الطيبة. وآمل، بل وأنا واثق، من أنكما ستسامحانني على هذا المساء غير السارّ، ولكن بالنسبة للرجال من معدنكما، سيكون كافياً أن تعرفا أنكما تُقدّمان معروفاً كبيراً.«

قال الرائد: «أرجو أن يعفو سموّكم عن فظاظتي، فأنا غير قادر على إخفاء ما أعرفه. لقد شككتُ في هوية الرائد هامرسميث منذ بعض الوقت، لكن السيد غودال واضح لا لبس فيه. إن محاولة العثور على رجلين في لندن لا يعرفان فلورزيل أمير بوهيميا، يعني مطالبة الحظّ بما ليس في وسعه تحقيقه».

صاح براكنبيري في ذهول: «الأمير فلوريزيل!»، وحدّق باهتمام عميق في ملامح الشخصية اللامعة الواقفة أمامه.

علّق الأمير قائلاً: «أنا لستُ نادماً على خسارة هويتي المتخفية، لأن ذلك يتيح لي أن أشكركما بنحو لائق. أنا على يقين من أنكما ستقومان بنفس الشيء من أجل السيد غودال كما من أجل أمير بوهيميا». ثم أضاف مع إيماءة مهذبة: «ولكن بما أن الأمير بوسعه أن يفعل الكثير من أجلكما في المقابل، فأنا أعتبر نفسي رابحاً».

في اللحظة التالية، دخل في حديث مع الضابطين حول الجيش الهندي والقوات المحلية، وهو موضوع مثل كل المواضيع الأخرى، كان لديه رصيد رائع من المعلومات عنه وأكثر الآراء حصافة.

كان هنالك شيء مذهل للغاية في سلوك الأمير في لحظة الخطر القاتل هذهِ، بحيث طغى على براكنبيري الإعجاب والاحترام، وكان واقعاً تحت تأثير سحر حديثه واللطافة المِذهلة في خطابه. لم تكن كل إيماءة ونبرة، نبيلة

في حد ذاتها، بل بدت وكأنها تفيض نُبلاً على البشر المحظوظين الذين كان الحديث موجهاً لهم. واعترف براكنبيري لنفسه بكل حماس، أن هذا حاكم يمكن للرجال الشجعان أن يضحّوا بأرواحهم من أجله بكل امتنان.

مرّت عدة دقائق، وفي غضون ذلك كان الشخص الذي أدخلهم إلى المنزل جالساً في زاوية، يراقب ساعته في يده، وفجأة نهض من مكانه وهمس بكلمة في أذن الأمير.

أجاب فلوريزيل بصوتٍ مسموع: «حسناً يا دكتور نويل». ثم قال للآخرين: «المعذرة أيها السادة، لأنني مضطر إلى تركككم في العتمة. لقد اقتربت ساعة الحسم».

أطفأ الدكتور نويل القنديل، فأضاء النافذة نور خافت رماديّ منذر ببزوغ الفجر، لكنه لم يكن كافياً لإضاءة الغرفة، وعندما نهض الأمير من كرسيّه، كان من المستحيل تمييز ملامحه أو تخمين طبيعة المشاعر التي أثرت عليه بوضوح أثناء حديثه. تحرك نحو الباب، ووقف في جانبٍ منه، وهو على أشدّ ما يكون من الانتباه والحذر.

قال: «هلا تلطفتم بالحفاظ على الصمت التام، وحاولوا أن تخفوا أنفسكم في الأركان المظلمة من الغرفة لكي لا يمكن رؤيتكم».

سارع الضباط الثلاثة والطبيب لتنفيذ أوامره، ولمدة عشر دقائق تقريباً كان الصوت الوحيد الذي يمكن سماعه في روتشستر هاوس ناتجاً من حركة الفئران خلف الجدران والألواح الخشبية. وفجأة دوّى بوضوح مرعب وسط الصمت صوت صرير من مفصل باب، وسرعان ما سمع المراقبون وقع خطوات بطيئة وحذرة تصعد سلالم المطبخ. وبين خطوة والثانية، بدا أن المتسلل كان يتوقف مؤقتاً ليرهف سمعه، وخلال هذه الوقفات المؤقتة التي بدت وكأنها تمتدّ إلى ما لا نهاية، سيطر على نفوس المستمعين قلق عميق. حتى أن الدكتور نويل الذي كان معتاداً على المواقف الخطيرة، عانى من انهيار جسدي كاد أن يكون مثيراً للشفقة، فقد صفّرت أنفاسه في رئتيه، واصطكت أسنانه ببعضها وطقطقت مفاصله بصوت عالٍ فيما راح يتململ في مكانه من شدة القلق.

أخيراً، وُضعت يدٌ على الباب من الخارج، وفُتح المزلاج محدثاً طقطقة بسيطة. تلا ذلك وقفة أخرى، استطاع خلالها براكنبيري رؤية الأمير وهو يستجمع نفسه بكل هدوء، كما لو أنه يستعد للقيام بمجهود جسدي غير معتاد. ثم انفتح الباب، مما سمح بدخول المزيد من ضوء الصباح، وظهرت قامة رجل واقف على عتبة الباب دون حراك. كان طويلاً، ويحمل سكيناً في

يده. وحتى في ضوء الشفق، كان بإمكانهم رؤية أسنانه العلوية عارية ولامعة، لأن فمه كان مفتوحاً مثل كلب يوشك على الانقضاض على فريسته. كان من الواضح أن الرجل قد خرج للتوّ من الماء، لأنه كان مبتلاً بالكامل، من قمة رأسه حتى أخمص القدم، وحتى أثناء وقوفه هناك فقد ظلّت قطرات الماء تتساقط من ملابسه المبللة وتتناثر على الأرض.

في اللحظة التالية، تخطى العتبة. كانت هناك قفزة، وصرخة مكتومة وعراك فوري، وقبل أن يثب العقيد جيرالدين لمساعدته، كان الأمير ممسكاً بكتفي الرجل المنزوع السلاح والعاجز عن الحركة.

قال الأمير: «دكتور نويل، من فضلك أشعل القنديل ثانية؟».

ثم تنازل عن مسؤولية سجينه إلى جيرالدين وبراكنبيري، ومشى عبر الغرفة ثم وقف مسنداً ظهره إلى رفّ المدخنة. ما أن أُشعِل القنديل حتى لمحت المجموعة صرامة غير معتادة في ملامح الأمير. لم يعد فلوريزيل الشاب المُهمِل، بل كان أميرَ بوهيميا المستشيط غضباً والعاقد عزماً. ثم رفع رأسه وخاطب الأسير؛ رئيس نادي الانتحار.

قال: «حضرة الرئيس، لقد نصبتَ فخّك الأخير، وأنت من وقعتَ فيهِ. لقد حلّ الصباح، وهو الصباح الأخير الذي ستشهده في حياتك. لقد سبحت للتوّ في قناة ريجنت، وهذهِ هي آخر مرة تسبح فيها في هذا العالم. إن شريكك القديم الدكتور نويل، لم يقبل بخيانتي، وبدلاً من ذلك، سلّمك لي لأنفّذ فيك حكمي. إن القبر الذي حفرته هذا المساء لكي تدفنني فيهِ، سأدفنك بمشيئة الربّ فيهِ، وسيستر العقاب العادل الذي سأنزله بك عن فضول البشر. لذا اركع لتصلي يا سيد، إذا كان عندك ميلٌ للصلاة، فقد دنت نهايتك، وقد سئم الربّ من آثامك».

لم يجب الرئيس بكلمة أو حتى إشارة، وظلّ مطأطئ الرأس محدّقاً بوجومٍ في الأرض، كما لو أنه كان يشعر بنظرة الأمير المطوّلة والقاسية.

واصل فلوريزيل حديثه وقد عاد لنبرته الاعتيادية: «أيها السادة، هذا الرجل تملّص مني طويلاً، لكن بفضل الدكتور نويل، وقع الآن في قبضة يدي المُحكمة. إن الحديث عن جرائمه سيستغرق وقتاً أطول مما يمكننا الآن تحمّل إهداره، ولكن يكفي القول إنه لو لم يجرِ في القناة التي سبح فيها هذا المجرم للتوّ، إلا دماء ضحاياه المساكين، فأعتقد أن هذا الشقيّ لن يكون أقل بللاً مما ترونه. ولكن، حتى في قضية من هذا النوع أرغب في الحفاظ على نواميس الشرف. وها إني أنصبكم أنتم قضاة أيها السادة، إنه إعدام أكثر منه مبارزة، وإن منح الوغد فرصة اختيار نوع سلاحه سيكون بمثابة

مبالغة في آداب السلوك». ثم قال وهو يفتح قفل صندوق السيوف: «لا يمكنني تحمّل خسارة حياتي في مثل هذه القضية، وبما أن الرصاصة تطير غالباً على أجنحة الحظ، وقد يسقط الرجل الماهر والشجاع على يد رامٍ مرتعش، فقد قررت، وأنا متأكّد من أنكم ستوافقون على قراري، أن أحسم المسألة بحد السيف».

كان الحديث موجهاً تحديداً إلى براكنبيري والرائد أوروك، فأومأ كلاهما بالموافقة، عندها قال الأمير فلوريزيل إلى الرئيس: «أيّها السيد، اختر سيفاً بسرعة ولا تجعلني أنتظر، لم أعد أطيق صبراً لأنتهي منك إلى الأبد».

ولأول مرة منذ القبض عليه ونزع سلاحه، رفع الرئيس رأسه، وكان من الواضح أنه بدأ على الفور في استجماع شجاعته.

سأل بحماس: «هل ستكون مبارزة؟ وبيني وبينك؟».

أجاب الأمير: «نعم، فلا تزال نيتي إلى الآن إكرامك».

صاح الرئيس: «أوه! هيا! من يعرف كيف يمكن أن تسير الأمور في ميدان مبارزة عادلة؟ اسمح لي أن أضيف أنني أرى هذا تصرفاً نبيلاً من جانب سموّكم. وفي أسوأ الأحوال، لو أنني متُّ، فستكون نهايتي على يد أحد أشجع سادة أوربا».

وبعد أن تحرّر الرئيس من قبضة الاعتقال، تقدّم نحو الطاولة التي كان عليها صندوق السيوف، وبدأ يختار سيفه بحرص شديد. كان مبتهجاً للغاية، وبدا وكأنه يشعر بأنه واثق من خروجه من هذه المبارزة منتصراً. تنامى الفزع في نفوس الحاضرين من هذهِ الثقة بالنفس، وناشدو الأمير فلوريزيل لإعادة النظر في قراره.

أجاب الأمير: «إنها مجرد تمثيلية أيها السادة، وأعتقد أنني أستطيع أن أعدكم، بأنها لن تستمر طويلاً».

قال العقيد جيرالدين: «سموّكم، كُن حذراً أتوسّل إليك».

قال الأمير: «وهل عرفتني يوماً مُخفقاً في تسديد دين شرف يا جيرالدين؟ أنا مدين لك، وأن موت هذا الرجل هو ما سيكون وفاءً لديني».

في النهاية، انتقى الرئيس سيفاً ذا حدّين، وأبدى استعداده للمبارزة بإيماءة لم تخلُ من نبلٍ وقح. إن دنوّ الخطر، والشعور بالشجاعة، حتى مع هذا الشرير البغيض، قد أسبغا جوّاً من الرجولة والرفعة على الموقف برمّته.

مدّ الأمير يده والتقط سيفاً لا على التعيين.

ثم قال: «سيتفضّل العقيد جيرالدين والدكتور نويل، بالبقاء في هذه الغرفة بانتظاري. لأنني لا أرغب بأن يشترك أي صديق من أصدقائي المقرّبين في هذهِ المسألة. حضرة الرائد أوروك، أنت رجل وقور وصاحب سمعة لا تشوبها شائبة، لذا سأتعهد بالرئيس إلى حراستك. وسيتلطّف الملازم ريتش بإعارتي انتباهه، لأنه من الجيد أن يكتسب الشباب خبرة في مثل هذهِ الأمور».

أجاب براكنبيري: «صاحب السمو، هذا شرف سأعتزّ بهِ لبقية حياتي».

أجاب الأمير فلوريزيل: «لا عليك، آمل في المستقبل، أن أكون أكثر نفعاً لك كصديق في ظروف أكثر أهمية».

وما أن قال هذا حتى قاد الطريق للخروج من الغرفة والنزول من سلالم المطبخ.

قام الرجلان اللذان تُركا لوحدهما في الغرفة بفتح النافذة، ومدّا جسديهما منها، وقد أجهدا كل حواسهما لعلّهما يلتقطان أية إشارة على الحدث الخطير الذي يوشك على الوقوع. توقّف المطر، وحلّ النهار تقريباً، زقزقت الطيور في الشجيرات والأشجار المكتظة في الحديقة. ولوهلة، كان يمكن رؤية الأمير ورفيقيه عندما سلكوا ممرّاً ضيقاً بين أجمتين مزهرتين، ولكن عند أول منعطف تدخلت مجموعة متشابكة من أوراق الشجر، وغابوا مرة أخرى عن الأنظار. كان هذا هو كل ما أُتيح للعقيد والطبيب فرصة رؤيته. كانت الحديقة واسعة جداً، وكان مكان القتال بعيداً تماماً عن المنزل، حتى أن صليل المبارزة بالسيف لم يصل إلى سمعيهما.

قال الدكتور نويل، وقد سرت قشعريرة في جسده: «لقد أخذه هناك، إلى مكان القبر».

صاح العقيد : «يا إلهي، انصر الحقَ».

وجلس الاثنان يترقبان بصمت نتيجة المبارزة، كان الطبيب يرتعش من الخوف، والعقيد يتصبب عرقاً من القلق. ولا بدّ أن عدة دقائق طويلة قد انقضت، فقد انتشر ضوء النهار، وراحت الطيور تغرّد أعلى من السابق في الحديقة. أخيراً، سمع الرجلان صوت خطوات عائدة جعلتهما يلتفتان إلى الباب. ثم دخل الأمير والضابطان. لقد نصر الله الحق.

قال الأمير فلوريزيل: «أنا خجل من انفعالي. أشعر بأنه ضعف لا يتناسب مع مكانتي، لكن فكرة بقاء كلب الجحيم ذاك على قيد الحياة، كانت تنهش بي

مثل داء عضال، وقد أراحني موته أكثر مما تريحني هجعة ليل طويلة».

ثم قال وهو يلقى بسيفه على الأرض: «انظر يا جيرالدين، هذا دم الرجل الذي قتل أخاك. يجب أن يكون مشهداً مُرحّباً به». ثم أضاف: «مع ذلك، انظروا، كم هو غريب ما جُبِلنا عليه نحن الرجال! لم تمرّ أكثر من خمس دقائق منذ أن ظفرتُ بانتقامي، وها إنني قد بدأت من الآن أسأل نفسي هل من الممكن بالفعل تحقيق الانتقام في هذه الحياة الزائلة؟ كل تلك الشرور التي اقترَفَها ذلك المجرم، من ذا الذي يمكنه أن يصلحها؟ إن تلك المهنة التي جمع منها ثروة طائلة -إذ أن حتّى هذا القصر الفخم الذي نقف الآن فيهِ هو ملكه- أصبحت الآن جزءاً من مصير البشرية إلى الأبد. يمكنني أن أفني نفسي في القيام بالمبارزات حتى قيام الساعة، ومع ذلك فإن شقيق جيرالدين سيظلّ ميتاً، ولن أستطيع إصلاح حيوات آلاف الأبرياء الذين أخزاهم وأفسدهم الرئيس! كم هو هيّنٌ أخذ حياة إنسان، وكم هو عظيم ما يمكن أن تُستخدَم فيه! ثم صاح قائلاً: «ويحي! هل هناك أي شيء في الحياة أكثر خيبة للظنّ من بلوغ الهدف؟».

أجاب الطبيب: «لقد تحققت عدالة الربّ. لقد رأيتُ الكثير، وتعلّمت درساً قاسياً، يا صاحب السمو، وأنا أنتظر دوري بخوف مميت».

صاح الأمير: «ولكن، ما هذا الذي أقوله؟ لقد أنزلتُ عقابي العادل بذلك المجرم، وها هو بجانبي رجل يمكنني بمساعدته تصحيح كل الشرور التي اقترفها. آه يا دكتور نويل! لا تزال أمامك وأمامي أيام طويلة من العمل معاً في مهمة شاقّة وشريفة، ومن يعلم، ربما ستكون، عندما ننتهي منها، قد كفّرت عن أخطائك السابقة».

قال الطبيب: «ربما. ولكن الآن، اسمح لي أن أذهب لأدفن صديقي القديم».

وهذه -يكتب النطاسي العربي- هي النهاية السعيدة للحكاية. ولا حاجة لنا بالقول إن الأمير لم ينسَ كل من ساعدوه في هذهِ المأثرة العظيمة. وإلى يومنا هذا، لا يزال يساعدهم بسلطته ونفوذه على التقدّم في حياتهم المهنية العامة. فيما أضفت صداقته الكريمة معهم سحراً إلى حياتهم الخاصة. ولكي نكتب -يقول مؤلفي العربي- كل الأحداث الغريبة التي لعب فيها أميرنا دوراً، فهذا يعني أن نملأ أرجاء المعمورة بالكتب. لكن مغامراته المرتبطة بـ (ماسة المهراجا) -كما يقول- ممتعة للغاية لحدٍّ لا يمكن معه إغفال ذكرها. لذا، دعونا الآن نتتبّع بحذر خطى هذا الرجل الشرقي، ونحكي القصص التي ذكرها، بداية بالقصة التي يسمّيها (صندوق القبعات).

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية
مقدمة المترجمة
حكاية الشاب صاحب الفطائر القشديّة
حكاية الطبيب وصندوق ساراتوغا ()
مغامرة عربات الهانسوم))

Notes

[←1]

(1) مقتبس في:

http://theses.ncl.ac.uk/jspui/handle/10443/839

[←2]

(2) للمزيد عن ترجمات ألف ليلة إلى اللغة الإنجليزية، راجع سهير القلماوي، ألف ليلة وليلة، دار المعارف، مصر، ص9.

[←3]

(3) انظر:

Memories and Portraits, Robert Louis Stevenson, London, CHATTO & WINDUS, 1912, Printed by Ballantyne, Hanson & Co., At the Ballantyne Press, Edinburgh.

[←4] *Arabian Night, Entertainments, Robert L. Mack, (4) Oxford University Press, 2009* في مقتبس ، *http://theses.ncl.ac.uk/jspui/handle/10443/839* ص 14.

[←5]

(5) مقتبس في المصدر نفسه، ص 67.

[←6]

(6) Saleh, Mada، أطروحة دكتوراه بعنوان *The Arabian nights and the modern short story :Stevenson, Wilde and Conrad*، في:

https://theses.ncl.ac.uk/jspui/handle/10443/839

[←7]

Swinnerton, Frank, R. L. Stevenson: A Critical Study (7)
مقتبس في Saleh, Mada، المصدر نفسه، ص 76.

[←8]

(8) انظر:

Convenient Death and Imperial Implications in R.L. Stevenson's «The Suicide Club», Ethan Taylor Stephenson, Southern Illinois University Carbondale, Open SIUC, 2018

[←9]

(9) *Stephen Kern, The Culture of Time and Space* مقتبس في *Ethan Taylor*، ص2.

[←10]

(10) للمزيد عن موضوع الهيمنة الذكورية راجع:

The battle of good and evil in Robert Louis Stevenson's Suicide Club by; Buket Akgun, Istanbul University, Department of English Language and Literature, 2002.

[←11]

(11) مقتبس في:

Julie Mathias, «Victorian Attitudes Towards Self-Murder», Curious Histories (blog on oldoperatingtheatre.com), November 11th, 2016

[←12]

(12) *Barry Menikoff, 'New Arabian Nights: Stevenson's Experiment in Fiction', Nineteenth Century Literature*، مقتبس في *Ethan Taylor Step-henson*، ص 2.

[←13]

(13) Ethan Taylor Stephenson، ص 6.

[←14] *Andrew Lang, ‘Mr. Stevenson’s Works (14)’، مقتبس في Ethan Taylor Steph-enson، ص 2.*

[←15]

(15) Mark Morrisson، مقتبس في Ethan Taylor Stephenson، ص 3.

[←16]

(16)للمزيد عن هذا الموضوع راجع عمل Ethan Taylor Stephenson وعمل Buket Akgun، المذكورين آنفاً.

[←17]

G. K. Chesterton, ‘On R.L.S.’, in Generally Speaking: A Book of Essays (17) *مقتبس في Saleh, Mada، ص 69.*

[←18]

(18) Barry Menikoff مقتبس في Saleh, Mada، ص 76.

[←19]

H. C. Bunner (19) مقتبس في Saleh, Mada، ص 71.

[←20]

(20) منصب مهم في البلاط الملكي البريطاني سابقاً، ويُعدّ اليوم منصباً فخرياً. وهو أحد أعيان البلاط المقرّبين من الملك والمسؤول عن كل الأمور المتعلقة بخيول الملك والإسطبلات والعربات الملكية ونقل العائلة الحاكمة.

[←21]

(21) sovereigns سوفرن: عملة ذهبية انجليزية.

[←22]

(22) Soho سوهو: منطقة في مدينة وستمنستر، في لندن.

[←23]

(23) Penny gaff: فرق ترفيهية شعبية للطبقات الدنيا في إنجلترا إبّان العصر الفيكتوري.

[←24]

(24) لعبة ورق إنجليزية كلاسيكية تعتمد بشكل رئيس على التفكير العلمي بالرغم من قواعد لعبها.

[←25]

(25)يعني المثل الشجاعة في مواجهة الخطر، يعود أصل هذا المثل إلى الكتاب المقدس، سفر صموئيل الأول، [34:35] «فَجَاءَ أَسَدٌ مَعَ دُبٍّ وَأَخَذَ شَاةً مِنَ الْقَطِيعِ... فَخَرَجْتُ وَرَاءَهُ وَقَتَلْتُهُ وَأَنْقَذْتُهَا مِنْ فَمِهِ. وَلَمَّا قَامَ عَلَيَّ أَمْسَكْتُهُ مِنْ ذَقْنِهِ وَضَرَبْتُهُ فَقَتَلْتُهُ».

[←26]

(26) Pluto هو إله العالم السفلي في الميثولوجيا الإغريقية.

[←27]

(27)العبارة في الأصل وردت في الكتاب المقدّس، سفر لوقا [7:28] «إِنَّهُ بَيْنَ الْمَوْلُودِينَ مِنَ النِّسَاءِ».

[←28]

(28) vogue la galère: مثل بالفرنسية يعني فليحصل ما يحصل، قد يقابله في العربية «دعِ المقادير تجري في أعنتها».

[←29]

(29) العدد ثلاثة عشر.

[←30]

(30)صندوق ساراتوغا Saratoga Trunk: صندوق سفر كبير بغطاء محدّب.

[←31]

(31) Bullier Ball: بولييه بول، قاعة رقص في باريس، فرنسا، أسسها François Bullier في منتصف القرن التاسع عشر، وقد حملت اسمه.

[←32]

(32) Bowie knife: سكين بوي هو سكين يُستعمل للقتال، سُمّي على اسم جيم بوي الذي استعمل هذا السكين في مبارزة شهيرة عرفت باسم ساندبار فايت.

[←33]

Napoleons (33) نابليون: عملة فرنسية قديمة.

[←34]

Bangor, Maine (34): تقع (بانجور) في ولاية (مين) أقصى شمال نيو إنغلاند.

[←35]

(35) Hansom cab: عربة يجرّها حصان واحد، تمتاز بالثبات والسرعة. صمّمها وأخذ براءة اختراعها في عام 1834 المهندس البريطاني جوزيف هانسوم. وهي عربة منخفضة مغلقة ذات عجلتين. ميزتها هي مقعد السائق المرتفع في المؤخرة. تتّسع لراكبين. يتحدث السائق مع الراكب من خلال كوة في السقف قابلة للغلق.

[←36]

(36) Baccarat: إحدى ألعاب القمار بالورق، فيها ثلاث نتائج متوقعة فقط: فوز اللاعب، فوز الموّزع، التعادل.

[←37]

(37) Manila Cigars: من أفخر أنواع السيجار، فليبّينية المنشأ.

[←38]

(38) ورد في الكتاب المقدّس: «وَانْتَخَبَ يَشُوعُ ثَلاَثِينَ أَلْفَ رَجُل جَبَابِرَةَ الْبَأْسِ وَأَرْسَلَهُمْ لَيْلًا»، سفر يشوع [8:3]. وهو (يوشع بن نون) في القرآن.

[←39]

(39) Parc-aux-Cerfs بالفرنسية، أو حدائق الأيل Stag park بالإنجليزية، هو الاسم الذي أطلق على المساحات الخضراء الشاسعة التي كان الأرستقراطيون الفرنسيون يستعملونها كحقول صيد قبل الثورة الفرنسية.